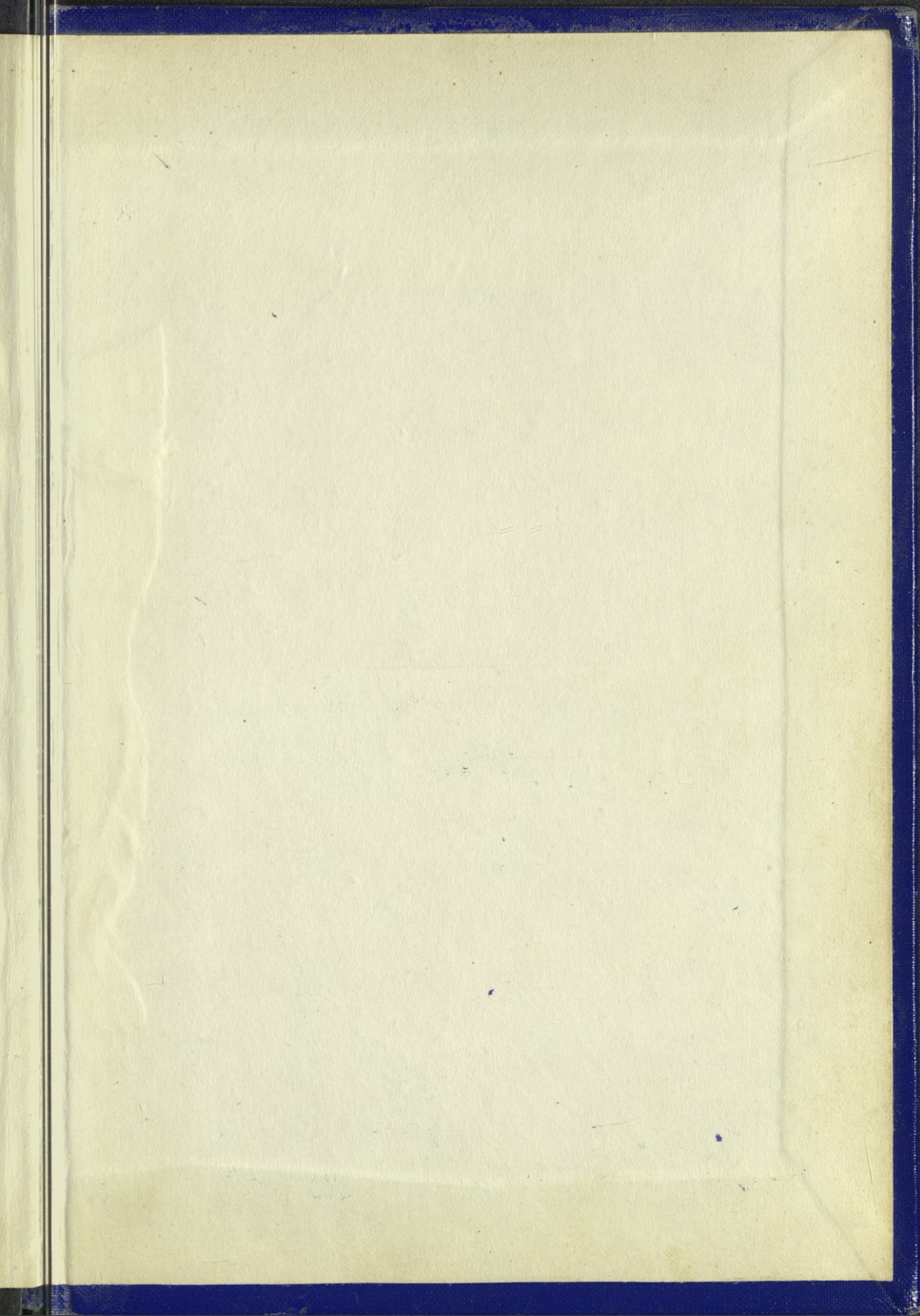


فصل

الشعر العربي





808.1:N26sA

نصر - نسيم

الشعر العربي في بلاطات الملوك •

808.1
N26sA

~~FE 26 '54~~

~~MR 9 '54~~

~~AP 23~~

~~FE 26 '56~~

~~MR 6 '57~~

~~N26sA~~

~~FE 27 '58~~

~~MR 13 '58~~

~~FE 27 '58~~

~~MR 26 '59~~

~~MR 26 '59~~

~~DEC 1 '58~~

~~DEC 22 '62~~

~~MAY 20 '62~~

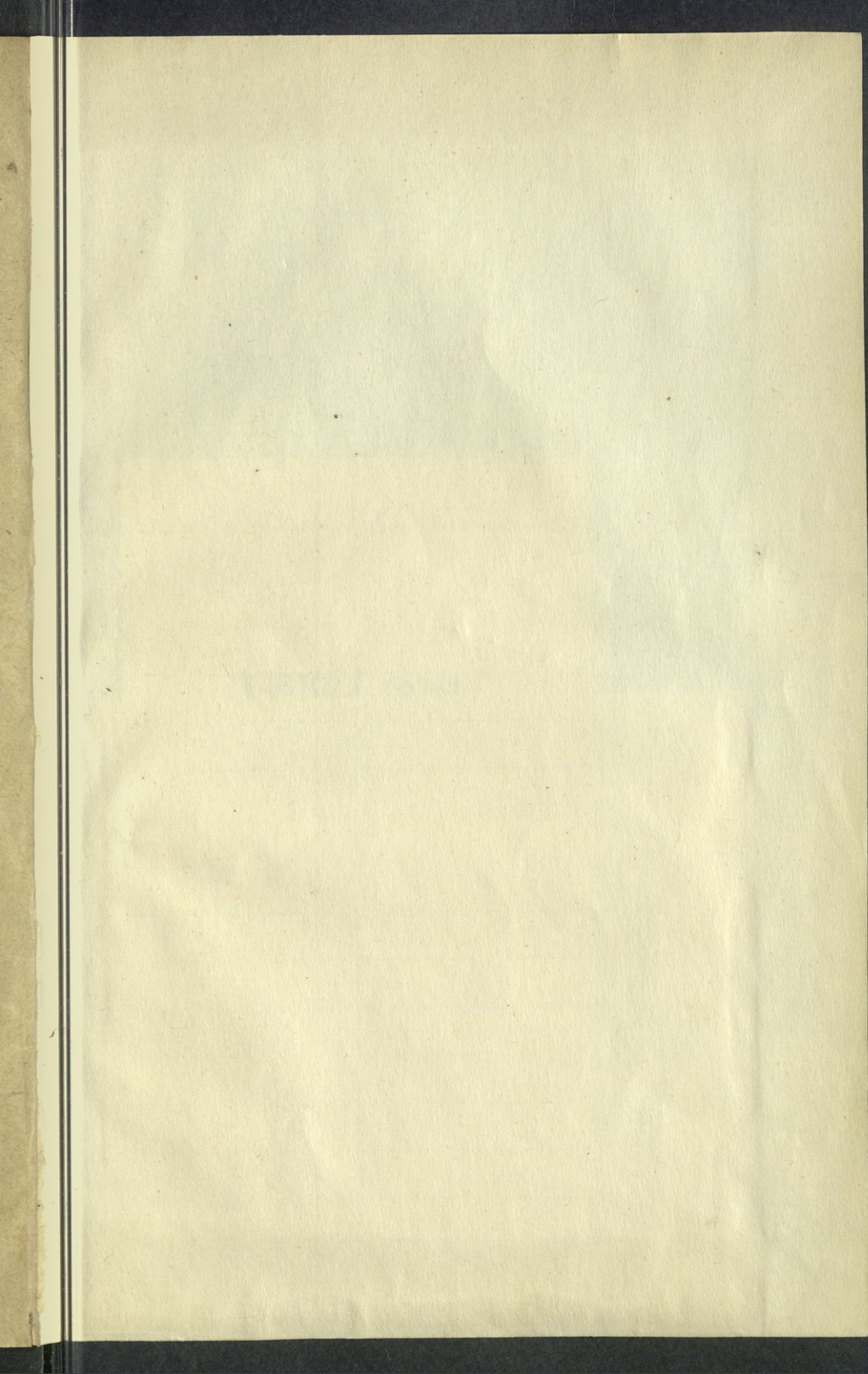
~~25 Jan. 64~~

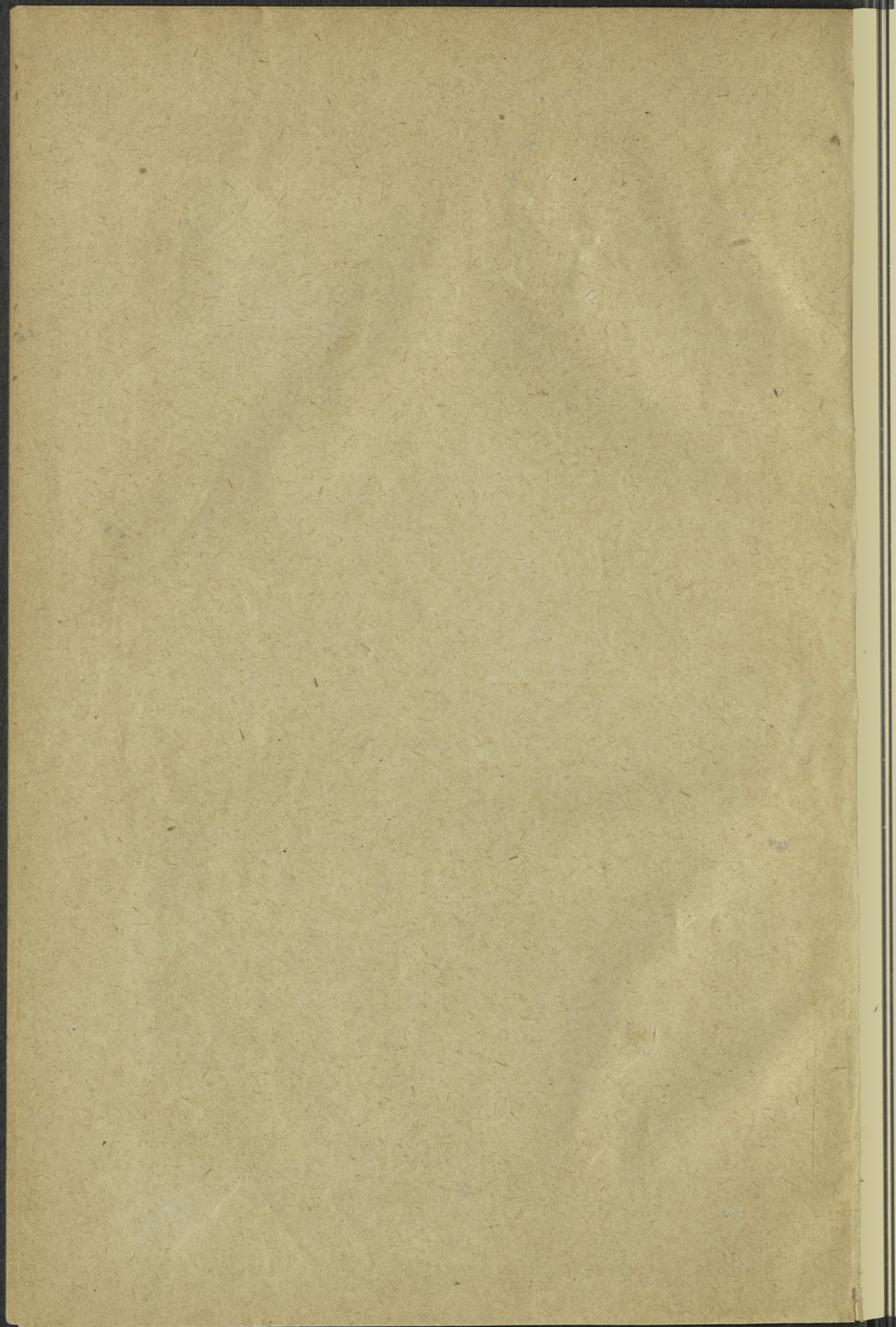
~~27 DEC 1970~~

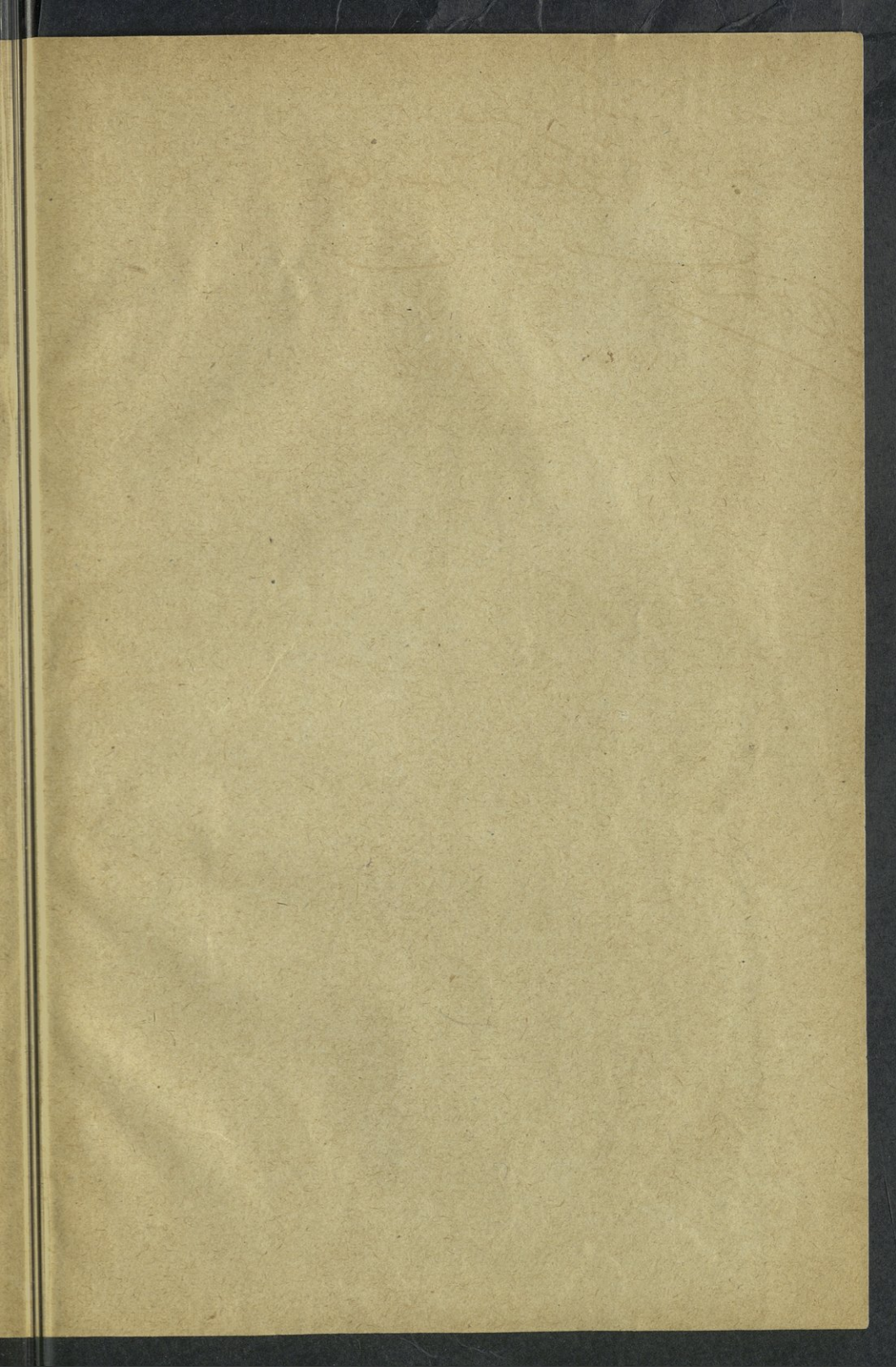
~~11 APR 1995~~

~~27 APR 1971~~









تقدرة المكتبة بافت
اجا حصة الادبكية في بيروت
من المؤلف
١٩٥٤ / ١٠ / ١٨

يطلب هذا الكتاب من دار مجلة الاديب
صندوق البريد ٨٧٨ - تلفون ٤٧ - ٩٢
ومن مطابع صادر ريجاني ، فرع المكتبة - تلفون ٦٢ - ٦٨
ومن جميع المكاتب
بيروت - لبنان

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف



اهداء الكتاب :

الى ربيب الاخلاق النبيلة وجل العلم النافع
والادب السليم والحكم النزيه
الامير الدكتور ربُف ابى المص
وزير التربية الوطنية والفنون الجميلة

808.1
N268A
C.1

نسيم



الشعر العربي

في بلاط الملوك

Gift - Author

cat. Jan. 11:54

دار مجلة الأديب

١٩٥٠



THE
LIBRARY

OF THEOLOGY

1891

مقدمة

(أعذب الشعر أكذبه) . . رأي كان لقدامي النقاد عندنا في الادب العربي .
ولا تحسب أنه لم يوزق حظاً من القبول والانتشار ، فقد اجتمع له من التأكيد
والجد والرواج ، ما لم يجتمع لغيره من الآراء الجديرة بالثقة .
ولعل لهؤلاء القدماء ما يشفع بهذا الرأي عندهم ، ولعل لهم من وجوه النظر ما
يجعله حقاً محضاً او كالحق المحض . . فإيتمنع ان يكون مفهومهم في الكذب هنا ، غير
المفهوم العادي المتبادر . وما يقطع لنا بان لا يكون معناهم به في حدود الصنيع
الادبي ، يلاقي من قرب او من بعد ، ما نعي اليوم بعبارة « الصدق الفني » .
فهذا الصدق قطعاً ، شيء غير المفهوم الاخلاقي بل لا يعترف بأنه منه في جوهره ،
وغير الواقع في مدلوله الساذج الضيق . . انه التقويم للجهد المبذوع ، في غير احتفال
بالشيء الخارج عنه أجا متفقاً معه ام مختلفاً عليه .
فشان الفن أنه لا يعي غير ذاته ، وعلى مقدار ما في الاشياء منه يعطيها الفاظ
القيمة : من صدق وكذب ، وسمو واسفاف ، ونجاح وإخفاق .
فالشاعر مثلاً - وهو يستفرغ مجهوده المبذوع لابرار عناصر الصورة الادبية ، التي
تجلت له او لمعت في مائة شروده - لا يأبه الا باستكمالها في كل ما لها من ملاسبات
وتفاصيل . . وصفة صدقه انما تجي . في حدود هذا « الاستكمال للصورة » وان جانب
به الواقع او خرج عليه خروجاً كلياً او جزئياً .

ومن ثم نظهر اولاً : على كيف يلتقي مفهوم الصدق بقياس الفن ، ومفهوم الكذب بقياس الواقع .

ونظهر ثانياً : على أن الناقد العربي القديم ، يوم قال مقاله ذاك وخرج فيه برأي غريب ، انما قال شيئاً سائئاً لدينا أيضاً ، او في الأقل ليس بعيداً عن منهج أسائينا . ومهما يكن ، فالذي يعنيننا من امر هذا المثل النقدي الآن ، هو انه راج كثيراً ، واتفق رواجه أكثر وأكثر حيال المديح من أغراض الشعر ، حتى اباح للشعراء ذلك النحو المفرط من المبالغة ، الشاذ في الافراط . .

وكتاب مؤلفنا الكريم الاستاذ نسيم نصر ؛ يدور على هذا الجانب المادح في ابرز اعلامه وأغنى محافله ، وأعني انه يدور على الاعذب والآثق وأعل صفة العذوبة هي أجمع ما يصلك بهذا الكتاب .

نعم . انه كتاب ليس هو الى النقد الخالص على انه اتسع له ، وليس هو الى الطرافة الخالصة ، على انه لم ينكمش عنها .

فالكتاب من هذه الناحية مزيج محبب ، يعطيك منه على نحوين : فهو للمتعة حين تشاء المتعة ، وهو للتذوق الفني حين تشاء توفير المادة للتذوق . . على أنه فوق هذا وهذا ، يأخذ بك في مضائق البحث الجاد الذي حشد له الاداة العقلية اللازمة ، دون ان تضيق به او يلحقك ما تحذر من رهق عقلي واعنات .

ولعلك لا تشك معي في هذا كله ، وأنت تضم الكتاب اليك ضمّاً يسيراً او ممعناً . ولست اماريك فالكتاب عقده مؤلفنا الكريم عقداً فريداً ، احمده له واغبطه عليه ، فانا ما اعرف سابقاً جمع نفسه على مثل موضوعه وكان له حظّه من التوفيق : ان في سداد التقسيم ومراحل الانتقال ، او في لياقة المعالجة واصابة القصد في يسر .

وما ظنك في كتاب يعرض لنا حكاية الشعر وحكاية الملك ، وما كان بينهما من اتفاق واختلاف ، ثم ما كان بين شخصيتيهما من قوة وضعف . . ليس بنا من بعد

بأربعة اعلام فاذا ج ، جاء ايهم وهو عنوان بلاط ، ومظهر دولة ، وارتسام جيل .
وان كان من حقي التنويه بشي ، فبطائفة من الآراء القيمة أتت منشورة على
منازلها من الكتاب . . ومن اهمها : مناقشة الرأي الشاك بأصالة المديح في الشعر ،
وبتعبير آخر ، الرأي الشاك بحظ المديح من الشاعرية ، وليس لشيء إلا لأنه انفصل
عن يد المناسبة .

فالشعر عند مؤلفنا ليس الواناً يصادق منها ويعادي ، وإنما هو سكب إبداع
و « زخم حي » على اي وضع قامت المرأة .

نعم ان الشعر في جوهره ، لحظات إلهام يجري بها حس في ، وروائع بيان
يسلسلها طبع أدبي من شأنه أنه يسعى الى الملاممة بين فكرة الصورة وخطوطها المألوفة
« بين الفاظها والمعاني » . . وان ذاك الحسن وهذا الطبع ، هما اللذان يتعاطيان جميعاً
على إبراز الأثر الشعري ، أكان في هذا اللون ام ذاك .

ثم لا يقل عن هذا الرأي أهمية ، رأيه الآخر الذي بثه في فصل « شخصية الشاعر »
وسواه على أن بين كلمات (شيطان الشعر والوحي واللاوعي) قدراً مشتركاً ، وإنما
ذات ملامح واحدة أصيلة . . وإن اختلفت بعد ذلك ، فبعمق المفهوم فقط ، وبحظ
عصر الكلمة من الإدراك .

وبعد . . فاني لا اود أن أقنم نفسي طويلاً بينك وبين الكتاب مرة ، ثم بينك
وبين الكاتب مرة أخرى ، فأنت اجدر بان تباشرها مباشرة من قريب .
ان حكاية الماء وان كان من شأنها ان تحرك شفاه الظمأ ، فليست هي
سبيل الري .

وإن من حق هذا الجهد الزكي ، كما من حقك ان تقف عنده للفني وللشعر .

عبدالله العلايلي

مدخل

وكان يوم ، منذ عشرين عاماً ، عهد فيه الي تدريس الادب العربي في معهد ثانوي فأخذت بالمهمة ، في صفوف منهاج البكالوريا ، وانا ما ازال متأثراً بالمعرفة السطحية التي قبستها تلميذاً ، وفيها ما يشير بوضوح الى ان الآداب العربية قائمة في معظمها على المديح والهجاء . وكيف لا يكون الامر كذلك ، واكثر ما كنت ارويه من الشعر العربي من نوع : « قال يمدح » مستجدياً او مسترضياً او متزلفاً .

وانصرفت الى الاضطلاع بعبء ما ادرس ، وفي البلاد من الادباء والمتأديين ، والمدرسين ايضاً ، عدد غير قليل ممن يقولون : « انقرع شعر الآداب الراقية بنظم المهراش وسفح ماء الوجه في خزانة العربية ؟ »

لم يطل بي العهد باحثاً مجتهداً أعتمد على النصوص لا على الشروح والاراء القديمة المحنطة او الدروس المتهافنة الى غرض منحرف او سطحية بادية ؛ فعدت من ذينك البحث والاجتهاد ، وفي يدي شيء مما يذر التراب عن بعض جوهر الشعر العربي المنظوم في اكثاف الملوك والعظام .

والعربية لم تنفرد بهذه الناحية من الادب ؛ فالدولتان الحكيمة والمالية كانتا

وما تزالان مباشرتي التأثير في دولة الادب في كل زمان ومكان .

وليست هذه الصفحات التي عنيت بجمعها مقتصداً في الكلام ، غير يسير من الاراء المدروسة في التنويه بقدر الشعر عند سائر الامم ومثزلته عند العرب والاشارة الى الغنائية العربية واستعراض بعض الشعراء المتقدمين نماذج في الكشف عن حقيقة المدح الشعري وصلته ببلاطات الملوك في مختلف عصور العربية .

ولست اخلص من ذلك الى القول بان وقف الشعر على أعتاب العظماء حافزة الى علماء الابداع والادب الخالد ولكنني عمدت ، فيما أعرض ، الى انصاف شعراء هذا النوع من الشعر جهدي .

نسبم نصر

— نوطية —

الادب العربي بين خاص وعام

لا اعرف حسنة جادت بها الحياة على الاقطار العربية ، في الفترة من الزمن التي تلت الحرب العالمية الاولى ، تعادل هذا النهوض الادبي السابق الموطىء للعرمان المأمول والتحرر المنشود .

وكان لا بد للعاملين في حقل النهضة الفكرية الادبية من تناول الارث العربي فيما يصلح منه ان يكون اسساً ودعائم للانتاج الحديث والثقافة العصرية . وكان مما لا غنية لنا عنه ايضاً ان تمثل بادب الغرب ، فارض السيادتين الفكرية والسياسية على العالم ، والتمثل لا يتم الا بالاخذ في امرين : النقل والتقليد المروض الذي ينتهي الى تفكيك اصيل .

اما النقل فقد طوته العربية بشكله المنظم مع الخليفة المأمون ، عالم خلفاء العرب ومؤسس « بيت الحكمة » ومرغم الحكومات المغلوبة على تسليم نفائس العلم والادب غرامة حرية . واما التقليد فهو ديدننا في هذه الايام وحبذا لو عملنا على اتقانه فيغنيننا ، في بعض ما نبني ، عن النقل والوضع .

وكأنا ، وقد عولنا على التقليد السطحي زمناً ، اخذنا في مطالع النهضة الحديثة

تنشر ما طوته مؤلفات المؤرخين ، امثال ابي عبيدة والاصمعي وابن سلام وايي زيد القوشي وايي الفرج الاصفهاني ، من جامعي اخبار العرب وادبهم ناهجين ، فيما نعمل ، نهج ادباء العرب القائمين في عمارة الادب ، فتحسن التقليد مرة ونسيته مرات ؛ الى ان اشتركت الحكومات في العمل مع الادباء فاعلنت مناهج التدريس الثانوي المعروف بمنهاج « البكالوريا » فشرعنا نوفق بين المنقول والمعقول فيما ننشر .

هنا بدأ تناقض الاراء في ماهية الادب العربي ، في مجله الموروث ، من حيث الخصوص والعوم وصحة النسبة والنحل وغنى الادب العربي وفقره ؛ وها نحن نعالج في هذا البحث :

الادب العربي بين خاص وعام

ان تعريفاً موجزاً لخصوص الادب وعمومه يلقي نوراً على بساط هذا البحث فننظر في خزانة الادب العربي باعتبار مفهوم ونزبط الكلام بالتعريف المقدم وهذا التعريف لا نرى احتماله ممكناً ان لم نتناول الادب في مؤثراته ومؤهلاته في زمانه وبيئته ، او بتعبير جامع ، في تمثيله عصره . على هذا الاساس نقول :

الادب صورة النفس وترجمان الفكر وطريق الاغراض في كل مكان وزمان وتقاس خصوصية ادب كل امة وعموميته بمقياس الصلة التي يوجدها ادبها بينها وبين سائر الامم .

فمن الآداب ما هو عالمي ومنها ما هو موضعي ؛ فيكون مدار بحثنا اذاً النظر في ضيق النطاق الذي عرفه الادب العربي وفي سعته ومن مبلغ فسحة هذا النطاق ندرك عمومية ادباء الضاد وخصوصيتهم .

ان اللغة العربية هي احدى اللغات السامية الحديثة البارزة وهي على رغم ما كانت عليه من توضع في الوحدة الوضعية ، في الماضي البعيد الوثني ، سارت في قافلة طليعة لغات تلك العصور اللابسة ما تسقط من مجد اليونانية ، حاضنة المدنية الهلينية ، وهي

مع حداثة عهدها ، بالنسبة الى اخواتها السامية الاصل ، ما تزال ابقاها ذكراً ووسعها ادباً وادلها على حياة ابنائها .

ولكي نسير في بحثنا هذا على نور التاريخ نبدأ بالاشارة الى اجماد العربية فيما لا يتجاوز بضعة قرون قبل الميلاد فنقول :

لقد كانت اللغة الفارسية اقدم اللغات المعروفة التي تأثرت بالعربية تأثراً محسوساً واخذت عنها وهذا ابن قتيبة يصرح برأي ذي بال وهو ان الفرس لم يكن لهم شعر قبل اختلاطهم بالعرب . وذهب نفر من مؤرخي الفرس الى القول بان اول من نظم الشعر في فارس هو بهرام جور ربيب الحيرة ، عاصمة المناذرة خلفاء الفرس في عداوة الروم ؛ وهكذا تكون العربية قد اعانت على خلق شعر لدولة عريقة في المجد لم يكن لها شعر قبل اتصالها بالعرب .

وفي الحيرة بدأ العرب في الاخذ باسباب علوم الكلدان وفلسفة اليونان وكان لهم فضل في نشر ما أخذوا .

ولم تقف حركة التأثير العربي في الآداب الفارسية عند حد جزئي في الشعر بل تجاوزته ، في ظل الاسلام ، الى مناح عديدة ونكتفي ان نذكر من بني بوية ، الفرس جنساً والعرب تأليفاً ، الوزيرين ابن العميد والصاحب بن عباد وأن نشير الى منزلتهما المرموقة بين بلغاء كتاب العربية حتى ندرك الى اي حد تعشق الفرس لغة الضاد .

وامتد مدى النفوذ العربي الادبي في تمديد نطاقه على رغم من السياسة ؛ وهذا العصر الساجوتي ، عصر النفوذ الفارسي في بغداد ، شاهد لسלטان العربية على السنة المستبدين بعرش خلفائها فقد نبغت منهم آنذاك طوائف من الادباء والعلماء تضيق دائرة بحثنا عن الاشتغال بذكرهم والاشارة الى آثارهم المشهورة الكثيرة .

وعن الرومان اخذ نوابغ الدولة الفسائية مدنية زاهرة وحملوا مشاعلها في كثير من البلاد التي اتصل بها نفوذهم وامتدت اليها علاقاتهم فكانوا مع نوابغ الحيرة ، جناحي العربية المتصلين بالروم من جهة وبالفرس من أخرى على كره من العداوة السياسية

التي رافقت دولتي بني لحم وبني غسان طوال عهد سلطانيهما .

ومن الأدلة القاطعة على ما للعربية من يد قديمة في نهضة الآداب والعلوم الحملة التي جهزها عرب الاسكندرية في القرون الاولى للمسيحية على الثقافة اليونانية فغنموا من مخزائنها المعارف الكثيرة وشرعوا يكشفون مجد اللغة السريانية واوجدوا دستوراً عربياً للأبحاث العلمية .

ومن شاء ان يتعرف الى مدى النشاط العلمي الادبي ، عند العرب في القرون الاولى للإسلام حتى عهد الانحطاط العباسي ويحس التفاهم الديني العملي الوثيق ، فليراجع بعض المصادر الموثوق بها من التي تنتقل إلينا أخبار « بيت الحكمة » في عهد المأمون وبيحث بصورة خاصة في القرن الرابع الهجري ، ذروة الاقتباس والانتاج الذي أغنى العربية فعكست معارفها على مرآة بيانها المصقول .

نصل الى هنا في البحث فنحس ان القارىء اخذ يعتقد ان الكلام المنحرف عن نحو الغاية الادبية المتوخاة ولكننا لم نتعرض لما تقدم الا لنعرض لذهن القارىء الاديب ان العربية التي عرفها في ادبها الجاهلي غنية بخيال شعرائها واحساسهم الذين توفقوا ، أعدائين كانوا ام قحطانيين ، الى شعريكا ديكون جامعاً لمناحي الشعر المعروف في ارقى اللغات المهدبة ، تعرفت ايضاً الى اساليب التفكير المنظم في عهود ازدهار دولتها وفي نزوات نبوغ بعض ابنائها وساهمت في انماء ثروة الانتاج الثقافي العالمي منذ اجيال بعيدة . اما الناحية الادبية الخالصة التي نعتمدها اساساً لهذا البحث فانها ، فيما خلا امتدادها الى بلاد فارس قديماً ، بقيت محدودة التأثير في خارج البلاد العربية الى ان كان الفتح الاسلامي فحصل القرآن الكريم بلاغته الى اصقاع كثيرة ونقل تجارب العرب وقادتهم وخطبائهم وشعراؤهم اساليب البيان القرشي الى حيث حلوا .

وان كتاباً نشر في العالم تعاليم سامية في بيان كله اعجاز لحري ان يطوف بأدب العربية ممسكاً بقوة وحيه عنان الروائع الانشائية . وان تجارة القوافل ، التي سبقت عهد البخار باجيال طويلة وجابت آسيا كلها واتصلت باطراف اوروبا تحمل بعض

الاصطلاحات العربية مع بضائنها الى شتيت البلاد ، لجديرة بترك الاثر على قدر ما يسمح
تقدم التجارة الجيار ؛ وهذا تاريخ مكة وتدمير والشاطئ ، العربي وبلاد المغرب ناطق
بعضمة العربية تجارياً ؛ والاقبال على بضاعة قوم دعوة لانتشار لغتهم .

وخطباء العرب لا يحس معهم بمكانة من قوة البيان وضروب المنطق غير قليل
من تقدمهم او عاصرهم من خطباء الامم المعروفة فهو لا طارق بن زياد والحجاج بن
يوسف وزياد بن ابيه شقوا طريقاً واسعة لهيئة الحكم والقيادة الحربية بعدها بعدهم
قادة الامم وخطباؤها المفهون وثاروها المحررون

والشعر تراث الآداب العربية الاقدم ومصور اخلاقها وراسم اشكال بيئاتها
يقيم وحده عمارة من الآداب لا تخلق جذتها الايام وقد يكون في بعض ما نأخذ على
قديم شعرائنا من جاهليين ومخضرمين وامويين استحقاق ننكره وميزة لا نتنبه لها .
وان خزائن الادب لا بد لها ، مجارة لروح الفن ، من ان تقتدي بالمتاحف فتحفظ
لطرفه بن العبد ، مثلاً وصف ناقته الطويل ، الدقيق صيانة لبعض الاوضاع العربية من
الضياع واحتفاظاً بتاريخ اهمية الناقة في حياة العربي خاصة والاسيويين والافريقيين
عامة يوم لم يكن العالم قد عرف من وسائل النقل ومراكب الاسفار البعيدة غير هذا
الحيوان الجليد . وعندني ان الشاعر الذي يجيد عشرات الابيات في وصف جمل أشعر
من آخر معاصر عالم يجيد مئات في وصف الطيارة او الباخرة . وان بدوياً يقف عند
اطلال جبيلته ، بعد عشرين سنة ، فلا يبدو لعينه سوى نومي وثلاثة اساني فيحمل
اليك ، من عالم خياله الفياض بالصور وحسه الدقيق ، ابياتاً لم يقل اجود منها نادبوها كل
أثبنا وعظمة روما من فحول الشعراء ، هو شاعر لا يجارى .

وبعد ، لم يكن ابو العلا في رسالة الغفران سابقاً لدانتي شاعر الايطالية الاكبر ؟
وربما كان معلماً له . وكان في معظم شعره من شعراء الغور الفكري العالمي
وعنقرة ، لم يكن معلماً الماماً طبعياً بعلم النفس ، ذخيرة الاديب الكبرى في عرف
العلم والدراسة ، في عصرنا الحاضر ، قبل ان وجد هذا العلم ؟ كما في قوله :

« ولقد شفى نفسي وبرا سقمها قبل الفوارس : « ويك عنتر أقدم »
وفي سينية البحري المنظومة قبل عهد التجايات الحديثة الفنية في الشعر العالمي ،
الا نؤشك ان نحس فيما ايوان كسرى يتحرك ؟ ومثل هذا القول يصح في وصفه
بركة المتوكل .

وابو الطيب المتنبي ، هل ترك ، في حلبة الشعر مجالا لسابق جامع ؟ ولم بيت
له شعر فيها فيها بخيال الملاحم ، بضاعتنا النادرة ، كبعض ابياته في وصف الاسد :
ورد اذا ورد البجيرة شارباً ورد الفرات زئيرُهُ والنيلا
متخضبٌ بدم الفوارس لابس في غيله من لبدته غيلا »

وادب ، القصة الذي نتهم الادب العربي الموروث بجلوه منه ، هل هو غير نطاق
جامع تدخل فيه « الف ليلة وليلة » وقصة عنتره ومقامات الحريري وبديع الزمان
واليازجي والترك فتلتقي بروايات زيدان ومسرحيات نقاش ونجيب حداد لتستقبل
رواية تيمور ومسرح شوقي وكلها تتهادى تحت شرف من قصص القرآن الكريم ؟
وان تلمسنا غرر القديم من شعرنا المترجم العالمي فهذه عصور الجاهلية طلعت على
العالم القديم بملقاتها الرائعة وبعض المنظوم الملوحي يوم كان الشعر حاماً في ضمير بعض
اللغات الحية وكان بعضها الآخر لم يضعه الزمن . ففي العهد الذي شرع فيه شارلمان ،
اقدم عظماء ملوك فرنسا ، في انشاء المدارس المنظمة كانت صحراء تدمر تستعد
لاستقبال المأمون برصديه الفلكيين . — والعلم توأم الثقافة الادبية العالية — وفي العهد
الذي كان فيه التقاضي ما يزال سيئاً ، لا مراس له عند اكثر الامم ولا احكام في
ضبطه ، جمع زهير بن ابي سلمى مجلة في بيت واحد من الشعر :

« وان الحق مقطعه ثلاث عيين او نفاو او جلاء

ونظم الحرث الشكري في معلقته دفاع دكتور في الحقوق فيه من فنون الحمامة
الحديثة ما يدهش الشارعين .

وماذا نقول في شعر الاخطل التغلبي الذي اغنى الامويين في عهدهم عن اكبر جريدة

سياسية في اشهر دول العالم اليوم ؟ وفقاً لحاجات العصر طبعاً .

وبعد ان نسقط لفيلاسباسا الاسباني ، في مقدمة على بساط الريح ، بعض مغالاة الشاعر يبقى فيها ما يكفي للاشارة الى فضل العربية على الآداب الغربية عامة والاسبانية خاصة ؛ هذه اللغة التي غزاها المستشرقون ونقلوا عنها ولم ينصفها واحد منهم حتى ظاهها جماعات ونحن ما نبرح نأخذهم حجة عليها ، على علائهم .

وخلاصة القول ان الآداب العربية التي اجتازت مراحل طويلة ، في فترات من الزمن متوالية او متفاصلة ، مهدمة الكيان ترمي بطغيان الحكم مرة وتقزيق الشمل مراراً وكانت ، على الرغم من ذلك كله ، تجد لها مقيلاً من العثار ونلشراً للوائها بعد اللف ، لهي آداب لغة حية لاشتقاقها من الحياة وباقية لاتصا لها بالبقاء ولن يعقر لها جبين وجذورها في الارض وراسها في السماء .

المؤلف

الشعر العربي

في بلاطات الملوك

الشعر ومنزلة عند سائر الأمم :

الادب هو الموجة الروحية من كل انسان، والشعر هو شعاع هذه الموجة وموسيقاها المهددة الام البشر مرة والموقظة كبرياءهم اخرى ؛ او هو اصابع الابداع ترسم صور الحياة الصحيحة في مقاطع الكلام وقوالب الاوضاع .

ولقد اجمع المؤرخون ، بعد تنقيهم الطويل في خزائن الآداب العالمية ، على ان الشعر اسبق الآثار الأدبية والموروثات الصورية التي خلفها السلف منذ فجر التاريخ . وان كان النثر اعرق في متناول التعبير عن حاجات الحياة الفكرية وفي تأليف الحوار المترجم عن مقاصد الناس في شؤونهم اليومية وأخذهم وعطائهم ان صح ان نسمي هذا الاخير نثراً ، فالشعر أقدم في الاعراب عما يعرض لهم من خصائص الحياة والتغني بما يغلي في صدورهم من حماسة وما يهز أحاسيسهم من حب او بغض وما يعصف في قرارات نفوسهم من حزن او ألم ؛ لذلك عرف للهمج في افريقيا وغيرها من الاماكن التي ما يزال اهلها يعيشون ، حتى اليوم ، على بعض مألوف الانسان « الاول » منظومات غنائية يهزجون ببعضها في افراحهم ويرقصون على انغامها ويستندون مآقيهم في ساعات الألم

وايام المنادب

وللأهم المتوغة في القدم مقاطع شعرية وقصائد منها ما هو بمنزلة ترانيم دينية ومنها ما هو بمثابة أناشيد حماسية ومنها ما يترجم عن منازع النفس المتنوعة . وأشهر عبارة الشعر العالمي على مر الاجيال هم :

فياسة شاعر « مهاماراته » وفالميكسي صاحب ديوان « راماياته » الكاهنان الهنديان مخلدا مظاهر اللغة السنسكريتية الشعرية ق . م . بقرون عديدة وهو ميروس شاعر « الاياذة » و « الاوديسا » اليوناني ؛ وفياسة عند الهنود منزلة عالية كمنزلة هو ميروس عند اليونان ، وللفرس الحسن بن اسحاق المعروف بالفردوسي ومؤلف « الشاهنامه » في القرن الرابع هـ ؛ وللرومان فرجيل ، شاعر القيصر اوكتافيوس ، وناظم « الايناييد » واخواتها من روائع الشعر اللاتيني وزميله لوقريوس ، منشد « طبيعة الاشياء » ومعلم الفلسفة « الابيقورية » ^(١) شعراً وكلاهما من شعراء القرن الاخير السابق الميلاد المسيحي . وللايطاليين ، في القرن الثالث عشر م ؛ شاعرهم الاكبر دانتي صاحب « الكوميديا الالهية » التي اهلته للقب « ابي الشعر الايطالي » . والانكليزي ميلتون صاحب « الفردوس الضائع » .

اما الفرنسيون فانهم يقومون في طبيعة الامم المتعددة في التهاافت الى احلال الادباء والشعراء المجلين واحياء ذكراهم بمظاهر هي اشبه بهرجانات الوثنيين لاهتهم منها بحفلات تكريم ادباء . ولقد كان لهم في القرن السابق لميلتون الانكليزي شاعر مرموق المنزلة غني الايقاع اسمه رونسار ولكن هذا الشاعر قصر عن ان يضع الامة الفرنسية في المرتبة الاولى من امم الثروة الشعرية فبقيت غمضة الطرف حتى كان ، شعراء القرنين السابع عشر والثامن عشر ؛ واقدرهم على المراس الادبي الطويل فولتير صاحب « الهازياد » ، ثم شعراء القرن التاسع عشر وفي طليعتهم جبار « الرومانطيقية » الخصب ومثبت اساسها ، فيكتور هيجو ورهط من معاصريه العباقرة كوسيه ،

(١) مذهب فلسفي يقول ب : « متعة الحواس » ولكن بصورة انيقة

ولامارتين ، وفيني ، واستمرت من ذلك الحين حتى اليوم منبتاً لكثير من اعلام الادب الحديث .

ولكي نقيم مصداقاً على صحة ما ذكرنا ، عن منزلة الشعر التليدة في الامم ذات الارث الثقافي ، نأتي على ذكر بعض المؤلفات التي خص بها واضعوها ، وكأهم من ألمع رجال الفكر العالمي ، صناعة الشعر وهي : « قواعد الشعر اليوناني » لأرسطو ، « وقواعد الشعر اللاتيني » لهوراس ، « وقواعد الشعر الفرنسي » لبوالو ، ولأرسطو كتاب آخر في الشعر خصه الى العربية القاضي ابو الوليد بن رشد وظهر هذا التلخيص مطبوعاً في فلورنسا من اعمال ايطاليا سنة ١٨٧٣ بعناية المستشرق فوستولازينو .

وان نحن اهملنا بعض المنظوم الفلسفي المعروف بالشعر الصوفي والذي كان جياذ حليته من الفرس ، وعلى راسهم امام الصوفية جلال الدين الرومي ، صاحب المشوي ، « قرآن اللغة الفارسية » راينا ان الشعر ينقسم باعتبار نفس الشاعر الى قسمين كبيرين غنائي وحجاسي ؛ وتحت هذين التعريفين الشاملين يوشك أن يدخل كل ما وصل الينا من الشعر .

وأشهر منظومات الحماسة هي الإلياذة والاوليسا لهوميروس اليوناني والإنييد لفرجيل اللاتيني والكوميديّة الالهية لدانتي الايطالي والفردوس الضائع للمنتون الانكليزي والهانز ياد افولتير الفرنسي والحماسة النابوليونية لهيجو الفرنسي .
لما الشعر الغنائي فله عند العرب الميدان الفسيح والايقاع الفريد المصقّى لقربى عوامل هذا الشعر من حياة الجزيرة الفطرية الساذجة في معظمها .

نشأة الشعر في العرب

واقسام هاته

قد تكون مرحلة الزمن التي اجتازتها العربية ، في وجه استقراره واحد ،
اوسع مرحلة صمدت لها اللغات الحية الراقية ؛ وشعرها جاء في الزمن البعيد مستقظراً
من قلوب ابنائها مصوراً لحياتهم معبراً عن مشاعرهم وتصوراتهم موقعاً على انغام
موسيقاه الرائعة وقوافيه المترنة اناشيد عناصر الحياة المتألفة مرة والمتضاربة مرأت .
والعهد المعروف في مصنفات تاريخ الآداب العربية بالجاهلية لا يصح أن يكون
المجلى الأول « لطفولة » لغة مضر الفصيحة البليغة لسلامة بديعه وصحة خياله ورقيق
غزله وبين حكمته كما يصح أن تكون « التروبادور » الفرنسية طفلة الادب
الفرنسي الحديث ؛ ففي هذه من النبوة عن الذوق الحديث ، او على الاصح المثقف ،
ما يؤيد طفوليتها .

ومن المرجح ان لغة مضر التي استقرت فيها اللسان العربي عرفت الشعر في زمن
أبعد من عصر المعلقات وذلك لما يبدو في هذه من التهذيب الوضعي والمراس النظمي
فكان القوم في عهدها كانوا قد اخذوا باسباب الحضارة فجاءهم واضحة أنها آخذة
بالاستقرار لبناء لغة تتسع في موضوعها للإعراب عن الفكر والصور والمشاعر ولنا
بقام شعراء العرب في الأدب القديم الدليل المؤيد الواضح

ومن المثلث أيضاً أن عرب الجاهلية سبقهم شعرهم إلى التماس الذوق الحضري والتحكُّك بالحياة الاجتماعية وذلك بفضل الاسواق وترعيم الشعراء في قيادة الذوق البدوي وترويض الطباع الحشنة . ومن أنعم النظر ، وكان على علم واسع باللغة ، رأى أن قديم الشعر العربي يغلب فيه الطبع على الصنعة بينما حديثه تغلب فيه الصنعة على الطبع وهذا الرأي من حيث الديباجة واللفظ ؛ وما إن تلمس شيئاً من تنخل الألفاظ وتعمد تحسين السبك أو التعمُّل فيه أحياناً ، في مثل شعر زهير بن أبي سلمى وابنه كعب وزميلها الحطيئة ، حتى تقر أن بعض البلغاء العرب أممو أهولاء ومثلهم عبيد الشعر ؛ إذ أن الطبع البدوي والذوق العربي العجم يملآن إلى السجية المرسلة كما هي الحال في معظم ما نقرأ لفحول الشعر القديم ، فهم مفطورون على خلال أشهرها الصدق المنطوي على استقلال الفكر والصراحة والشجاعة الأدبية خلافاً لما اقتضاه طابع الحضارة من التكلف بعد أن استبحر عمران الدولة العربية .

وصادفت بواكير الشعر العربي اقبالا عظيماً عليها لما في الإنشاد العربي من الإيقاع والجرس ؛ فتفاخر العرب بشعرائهم وتبادلوا التهاني بنبوغهم فَعَلَتْ مِثْلَهُ الشاعر وأصبح عندهم بيت الشعر ميزان كرامة في القبائل ومدياناً عظيم الصدى وحافزة مفضلة في الأحوال التي تستدعي استقراز المهَمِّ واثارة العصبية وقد كان للشعر أحكام مقبولة كأحكام القضاء .

قال الباقلاني في اعجاز القرآن المطبوع في مصر :

« إن العرب بدؤوا بالثر وتوصلوا منه إلى الشعر وكان عثورهم عليه بالاتفاق في الأصل غير مقصود إليه فلما استحسِنوه واستطابوه ورأوا الامتاع تألفه والنفوس تقبله تبعوه وتعلَّموا وتكَلَّفوا له ؛ فنبغ فيهم الشعراء وأقبل الناس رجالاً ونساءً على حفظ اشعارهم ورواية اخبارهم والتفاخر بالانشاد القصائد الكثيرة في المواضيع المختلفة والاستشهاد بكل بيت من آياتها عند الحاجة ؛ فجعلوا الشعر من بين الكلام ديوان علومهم واخبارهم وحكمهم وشاهد صوابهم وخطأهم وانزلوا الشاعر البليغ منزلة

الإمام الذي يُبتدئ بنهراس قريحته ويُفزعُ إلى رأيه في مشاكل القضية ومعضلات الأمور . فكانت كلمة الشاعر هي الكلمة العليا وقوله أمضى من السيف واحد من السنان وحكمه نافذاً بحكمهم الشرع في القضاء وربما رفع الشاعر بالبيت الواحد عز القبيلة أو هدمه ؛ كما وقع لشاعر قبيلة انف الناقة بعد أن كان اسمها مجلبة للعار بين القبائل »

نستعين بهذا الرأي للباقلاني في تأييد رأينا في منزلة الشاعر العربي القديم ، وإن كان في صدره ما يبدو ، لأول نظرة تلقى ، ما يجعل الشعر أحدث من النثر عهداً ، فذلك اعتماداً على كون النثر مجلي المقاصد العادية والمعبر عن المتناولات اليومية الأول ؛ وصريحاً في رأي الباقلاني أسبقية الشعر قدماً في بناء صرح الأدب العربي

واوشك الشعر أن ينحصر فيه قديماً في خاصته العرب لأن لغة الشعر توجب وجود الذوق والالفة وحضور الذهن المرفف وهذه قلما تتيسر للسوقة أيام شيوع « الأمية » في الأقطار العربية وسائر البلاد . والأمية تعني آنذاك جهل الكتابة حين لم تكن صرفة العربية قد تلطّخت باللحن والعججة .

ولكثرة ما ارتفعت منزلة الشعر في العرب أخذ النحّان والعرّافون الزاجرون والمتطّيبون واصحاب الحكم ينظمون الشعر أو يتجدونه باقرب انواع النثر اليه وهو ما نعرفه اليوم بالسجع .

هذا في الجاهلية أما في الاسلام فقد انفسحت حلبة الشعر فدخلها بعض الملووك والامراء والعلماء وقادة الحروب . وكأني بالخليفة عبدالمك بن مروان قد تغلّغت الى قرارة نفسه فصاحة شعر الاخطل في الدفاع عن ملك بني امية فقال لابنه الوليد : « انك يا بني لا تصلح للحكم في العرب وانت تلحن » ثم خصه بتعلم وعزله في دار .

وبلغ من محبة خلفاء الاسلام الادب عامة والشعر خاصة ان قام بين الخلفاء ان قام بين الخلفاء العباسيين شاعر قيل عنه : « هو افضل شعراء بني هاشم » وهذا الشاعر هو الخليفة عبدالله بن المعتز ولي عهد المقتدر ، المعروف ، بابن المعتز ، وفيه قال

صاحب الاغاني : « انه كان في شعره رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلملة المحدثين ، فان فيه اشياء كثيرة تجري في اسلوب المحيدين ولا تقصُرُ عن مدى السابقين » .

اما ابو فراس الحمداني فهو سيد من اسياذ القافية العربية ولا سيما في شعر الانفة والزعرة الارستقراطية اللبقة . ولكن الرؤساء من الأعاجم ، إبان المخطاط الدولة العباسية ، غَضُّوا من قدر الشعر اذ عدوه هجئة في الرئاسة وغير لائق باصحاب القدر الرفيع والمراتب العالية بعد ان جعله بعض المتكسبين في العرب ، او بالاحرى من الشعراء ، سلعة للارتقاق ووسيلة للكسب والزلفى الى الملوك والولاة واصحاب النفوذ .

ولا أرى حسناً ان تفوتنا الإشارة الى ان بعض عباقرة العلم في العرب كالطبيب ابن سينا ، المولود سنة ٩٨٥ م ، عني بالشعر عناية لم ترفعه الى درجة المبرزين في المنظوم العربي واكتنّها جعلته ، في قصيدة واحدة ، (هبطت اليك) ، سابقاً موطناً للنهج الرمزي في الربع الثاني من القرن العشرين ، في البلاد اللبنانية السورية ، فانتجعوا اساليبه واعتبروا من معينه الغربي عامة والفرنسوي خاصة ظانين انهم يطرفون العربية بالجلديد في خزانتها الشعرية في حين ان عينيته « الرئيس » حافلة برمزية ترضى عنها الفلسفة ويعتبط بها الشعر . وفي رمزه عن النفس البشرية « بالورقا » ذات التنز والتمنع الهابطة المحلّ الارفع » اشارة جلية الى التوفيق في الذوق التاميجي المعروف بالرمزية .

ولقد احسن شعراء الاندلس الى العربية بتتويجهم الشعر العباسي الزاخر بالفكر المثقف والصورة المستقدقة بتناحي مستطرفة لم تُعرف فيه قبلهم ، وبشقهم في الشعر طريقاً مباشراً الى العاطفة والذوق ويجعلهم شعر الوصف اقرب ما يمكن من الطبيعة مثال الوصفين والفنانين ، وفي هذا جانب من الثروة الادبية قدرها لنا الفرنج حق قدرها نذكر ، على سبيل الاشارة الى هذا التقدير ، ان الميسورية دوميك ، في كتابه المدرسي الفرنسي ، نوه بفضل العرب الاندلسيين على الفرنج ، ولا سيما ايطاليا واسبانيا وجنوب فرنسا ، في ايقاع البيت واتزان القافية وفي ورقة الغزل وحملهم اليهم الامثال والملح والحكم والقصص الهندية المعربة . ويؤيد قول هذا العالم الفرنسي ان

الامم الاوروبية استمرت الى نهاية القرن الحادي عشر للميلاد محرومة من خزائن الشعر وفنون الكلام تاركين الى الصومعيين والرهبان والاساقفة امر الاشتغال بالعلم والادب في باكورتيهما اشتغالا سطحيًا في اكثر الاحيان .

وربما كان للامس العربي الاسباني - الايطالي اثر في ايقاظ شاعرية كلوب دوفيكه الاسباني الذي بهر عالم زمانه باكثر من الف وسبعائة رواية شعرية ، وشاعرية صاحب الكوميديا الالهية المتقدم ذكره بين اقرباب الشعر العالمي .

والكن الشعر العربي اذاه وخط من قيمته ، كادب عالمي ، الاسراف في التعلل اللفظي عند طوائف غير قليلة من الشعراء في عصور مختلفة زمناً وحضارة وبقدر ما يظهر التعلل في الادب يبعد عن هز النفس واسعار الذهن بما يرمي اليه الناظم .

مفصية الشاعر

مذكرات: العقل والخيال والادب

لست احاول ، في هذا الجزء ، ان اقبض على القمر إذ قد يكون القبضُ على القمر اسهلَ لدى فويق من ادباء لبنان وشعرائه « الشباب » ، من تعريف الشاعر او الاحاطة ولو بيسير من المناهج الفنية التي يوتّدها ناظماً . على ان راي هذا الفريق ومن متّ اليها بصلة الادعاء للشاعر خروجه عن دائرة التحديد والتعريف لا يمنع من ان تتمثّل للشاعر شخصية تتألف من عناصر رئيسية يتمّ عدّها ان لم يتمّ ضبطها . فالشعر لا ، لا يخرج عن كونه مدخراً من الادب وكلُّ مدخراديّ يجب ان يدخل في نطاق التعريف والدرس وان لم يصلح للدخول في هذا النطاق فنبدّه أولى .

لقد تخيل العرب قديماً شيطاناً لعظماء شعرائهم ؛ فجعلوا لقيس بن الملوح شيطاناً يُنطقه شعراً رائعاً ؛ وتمثّل هذا التخيلُ حديثاً فاذا بهذا الشيطان يبدو شخصاً مسرحياً في رواية « مجنون ليلى » لشوقي وعدل العرب عن تخيل « شياطين الشعر » الى ادخال عباقره الشعر هالة النبوة فاذا « بشاران » يستهلّ قصيدته في حفلة تكريم شوقي بقوله : « قبسٌ بدا من جانب الصحراء هل عاد عهد الوحي في سيناء »

وضعت فكرة « الشياطين والنبوة » بتقلّص سلطة الدين فاذا بنفوس الشعراء المعاصرين يطهلون علينا باستحداث حالة « اللاوعي » للمحلّقين الشعريين .

وان نحن نحيلنا « الشيطان » او توهمنا « الالهاء » او استحدثنا « اللاوعي » يجب ان لا نخرج بالشاعر عن محيط هذا المثلث : « العقل والخيال والابداع » او أن نبقيه قريباً منه جهد الطاقة حتى لا نهوي به عن مستوى الموهوبين الخالدين .
وبعد أن نسلّم بقول « ده موسيه » : « الشعر لغة فئمة خاصة من الناس » يجب ان نعرض بالايجاز الممكن شخصية الشاعر قائمة على دعائهما الثلاث تتجلى وتعلو وتبدع وأن نتبين كيف تتمكن « هذه الفئة الخاصة » ، اي الشعراء ، من إحلال لقتها في المكانة اللاتقة بها في كل زمان ومكان .

قد يتجانس وجه الشاعر الابداعي ووجه المثال او المخترع فكلاهما يستحدث في تخيلته اشكالاً وخطوطاً والواناً ويستعرضها في تأليف متنوعة فيبني ويهدم ويهدم ثم يبني مجيلاً في كل مرة ما يبينه الى « محكمة ذوقية » إحالة قد تكون على غير شعور منه بأن هذا الذي يُبدل هنا ويُسقط هناك ويعدل هنالك إنما هو العقل اسلكم وبقدر ما تكون سلطة العقل قوية وفاعلية ذوقه ضابطة بقدر ما تخرج المادة مطبوعة بطابع العقل المهدب ؛ وهذا الإخراج الشعري هو المجلي الابداعي او ما نعبّر عنه بالسياق البياني في علم البيان .

اذن على هذه « الفئة الخاصة » ، اي الشعراء ، ان تبدع على ضوء من العقل ليكون لمنظومها سلطان على العقول وروعة في النفوس . والابداع هو صفة من صفات الخالق العظيم معدنها العقل ومصدرها اللانهاية في القدرة على ضبط الخيال وتنظيمه . وما الكون بشموسه وأجرامه وعوالمه غير المنظومة الكبرى لشاعر الخليفة « الله » ؛ فكيف يتم لأديب ان يتفلسف من حدود العقل او ان يدعي لنفسه حق الاستقلال عن سلطانه ثم يرغب في الابداع الشعري والوصول بايقاعه المنظوم الى الذروة التي لا يبلغها الا الباقرة من الشعراء المنضبطين في نطاق معقول ؛ يقولون ما يُعصر فيستخرج منه ما يُدعي فكراً يُغذي عقول الناس القراء ولقد اراد ده موسيه الشعر « ولاية القراء » طعماً لها قلب الشاعر .

على هذا الأساس يتضح لنا ان شخصية الشاعر هي المعنى الرئيسي المتبلور في منظومة سواء أكانت شخصية ذاتية ام تجريدية ، يعكس للقراء في كل زمان ومكان قيمة ذلك المنظوم ومبلغ ارتباطه بالعصر المقتطف منه وتمثله المنسوخ عنها ؛ وهكذا كانت شخصيات كثير من شعراء العرب القدماء الذين صمدوا للأدب وتاريخه صوراً تاريخية أدبية اعصورهم ومعرضاً حافلاً بظواهر بيئاتهم . وحيث استرخي ذاك الارتباط أو زاف هذا التمثيل سقط الشاعر ، ولو من عل ، مقتطعا بفأس شخصيته منخاعاً بعوامل تمرده على عقله أو انسلاخه عن عصره .

من مجالي الفنائية في الشعر العربي

من ثأنه هي الزهار الدولة العباسية

الفنائية هي المدى الرحب الذي طوفت فيه جماعات عديدة من شعراء العالم ، وخاصة شعراء العرق السامي ، مجنحي البيان رشيقي الايقاع ، يستلهمون مماوة الخيال ، ويستندون نوافح الفكر راضين مطمئنين ويستهبون زعازع الغيب مغضبين ثابين ، وبين هذه وتلك يخبضون ابياتهم بروائع الالوان ويمسجونها بأطياب القلب أو يغمرونها باهواء النفس الجائشة .

وهكذا ارتوى هؤلاء الشعراء من منابع الانسان ، فمكسوا شخصياتهم على مرايا نفوسهم بأمانة ، أو عبروا عن مشاعر من حولهم بعناية أو صوروا بعض ما يحيط بهم باتقان . ولئن قصرُوا من الناحيتين الابداعية والبطولية ، فانهم اعاضوا الشعر عنها بما جاش واستدق من التزوات الداخلية في الانسان واحكموا صيغها في منسجم من التعبير ، افضل ما يقال فيه انه صور يشها اشعاع الذات واستعراض البيئة واستبقاء الحوادث والواح الرؤى الخالدة في حدود القافية المنساقة بالايقاع الموسيقي .

ويظهر في الصف الاول من الغنائيين العالمين شعراء العرب في فجر عصورهم . ومن تناول الشعر الجاهلي بالدرس احس بتراخي الوحدة الموضوعية أو بفقدانها ، فانثنى الى

ذاته يسألها : « اين هؤلاء من الادب الموضوعي » ؟ انهم لم يكونوا في تلك المرحلة من عمر الآداب ، منصبين على توجيه معين من الفكر او لون مفروض من الصورة او او تعليل مروض من الحكمة ، بل كانوا يجعلون من شعرهم مذكرات يجمعونها ، رغبة منهم في ادخارها وعرضها عند الحاجة . وانت ان قرأت معلقة عمرو بن كلثوم مثلاً ، رأيت فيها احتكامه الى ابن هند ، صاحب الخيرة آنذاك الى جانب افتخاره بجذف رأس ذاك المليك الحكم . واذا اخذت معلقة طرفة بن العبد باحثاً فيها اوشكت ان تلمس الفتى الجاهلي اللاهني مريحاً العنان لتزوات الفتوة ماتعاً ما شاء له الشباب ، موصياً بالمرءة ما عاشت النخوة . واذا عكفت على مطولة زهير تراءى لك الرجل الحكيم يتناول اموره بيمار ويخاطب الناس بمقدار ويبسط لك دنيا من الفهم توشك ان ترقى الى محاولة في رسم الخطوط الاولى لادب الاجتماع .

وبعد ان تبطن الى نفحة الايمان البكر في شعر لبيد وتنعيم بفيء التعزية الزاهدة في عرض الحياة الزائلة معه ، نعب مرافقين حسناً بن ثابت ، شاعر الرسول ومجاز التحول الجزئي ، بين الجاهلية وصدر الاسلام الاول ، فنعمر بفيض الركون ونستهوى بهمس الايمان الموحد .

واذا جئت الصدر الثاني للاسلام اطل عليك ، من عاصمة الامويين ، الاخطل التغلي محامي السدة الجديدة وشاعر البلاط وتافخ ريح الحجرة ، حاملة عقب الفلسفة «الذهوية»^(١) في الشعر العربي . وان لم يحس اصحاب القراءات الخاطفة في « مناقضات » الاخطل وجريد والفرزدق غير هراش وسباب ، وان لم ير بعض المطلعين على مساجلات العصبية والاحزاب الشعرية التي كان ابطالها بعض كبار شعراء بني امية من جهة ومقدمي شعراء الشيعة من جهة اخرى يومئذ ، غير التفاحم بنجيث القول ، ولاذع التهم فاني لاستطاع فيها ، على ضراوتها ، ان صح التعبير ، دنيا من التزعات وارجوحة من الميول

(١) اصطناع تعبير ايجازي يفسر غاية المسكر التمزجية .

ومعرضاً لمراحل حاسمة في التاريخ ، فالشاعر كان في ذلك العهد خطيب زمانه وصحفي حواضره واحزابه وصناجة باديته ومذيع دعوته . ولقد كان الشاعر الاموي ، فوق ذلك ، كان « مقترح ^(١) » الخلافة بالارث وموجه السياسة بالشعر .

وانن نسينا ان نضع الى جانب ما تقدم ثروة الشعر في الغزل او فيض الحب في الشعر فقد اصبنا الغنائية بسهم في الصميم ، فمن حب بني عذرة شعت خيوط النور في جوانح الانسان المنجج العاطفة ومن روائع عمر بن ابي ربيعة لبست ابكار عرائس القلب لباسها المونق وهفت الى ملاقات الاحباب مزينة مبرجة مطيبة ساترة تزوات الاباحية بطرف الفن الغنائي .

اجل ، ان الغنائية المؤرخة المدافعة عن الدين المرافعة في سبيل الملك المترجمة عن تزوات القلب في ميوله واهوائه واباءه ، لهي غنائية تحي العصر الاموي ما استمر القلب البشري نابضاً بالحب وتنسج الى البقاء ما بقيت اساليب الكلام المنظوم انشودة الامماع في البلاغة .

وما بال الامم تستعرض تاريخها وذكراياتها الحاضرة وتبعث حية مجادها واجدادها في نقش على حجر او بقية من مومياء او اشارة باقية فوق جماد . بينما يستوهنا تفهم هذا الغناء في لغة الوحي وموسيقى الاجيال لنضع انفسنا موضع المرافق مخلفي هذا الارث الادبي احياء في اناشيدهم نتحسس فيها وجوه الحياة وخلجات الصدور فكأنها مرافقة الحي للحي .

وما ان بلغت غنائية الشعر العربي ظلال الدوحة العباسية حتى انصهرت فيها احساس طوائف كثيرة من الالى اغواهم البيان العربي من الامم التي شملتها بغداد بسيطرتها او الذين أموها موالي او مستترفين نعم البلاط العباسي . ومد الشعراء العرب جنساً واصلاً اقلامهم فلقحوها بالمازج الادبية الجديدة في دنياهم وزينوا نتائجها بفن لم يكن لهم

(١) اشارة الى الايعاز الذي قول مسكين الشاعر في مجلس معاوية الاول :

« اذا ما المنبر العربي خلاه ربه فان امير المؤمنين يزيد »

قبلاً إذ كانوا ما يزالون محافظين على سمات البداوة متأثرين بالطبع وحده ، وذلك الطبع كثيراً ما كانت تغلب عليه السذاجة الخلوة المستحبة النائية عن التثخث والمترفعة عن المتع والمجون التي أصبحت مألوفة في هذا العصر . ولكن ما لنا وللنقد المسلكي ، ونحن نقصد الى اعلان العهد العباسي مبلغ الاوج في طريق الغنائية العربية ؟

أليس بشار بن برد ، وهو من ابعد الشعراء عن التقيد بواجبات الاجتماع في مختلف مفاريضه وتنوع ضوابطه يطلع على آفاق الشعر من تمام الفن الغنائي مدلاً بشاعرية هي من الحصب والروعة ، في مواكب الخلود ، ولكنه الشعر المستحدث من معادن اللذة ومزيج الالهواء والمنازع ينفجك بعطر من نياسم الفن ، كما تفعل الطبيعة في تكيف عناصر السهاد لثملا المشام بالشدا والعيون بالبهجة والمجالس بروائع الالوان والمزاهر .

وربما انساقت للغنائية بعض شوارد الفلسفة وتفتحت لها بعض مغاليت الفكر كما حدث لابي نؤاس . وانه لمن العجب ان يترسم هذا الحبيث المائع الماجن مسالك النفس ويستبيح مكنوناتها بضروب من الشعر خلدت متحفاً اثرياً وسجلاً صادقاً حتى الوقاحة في استعراض زمانه ، فهو في مخرياته « خيام » العرب يغرف من تلك الفلسفة الذهولية التي حمل لواءها في الشعر العربي . وهي فلسفة ترافق الصحة والشباب غالباً فتختصر طريق الانسان في مدارج الحياة ، فلا تصله با قبل الرحم ولا تشغله با خلف القبر ، وتحجزه ناعماً بما تيسر رخي البال يحني ورود الحياة غير عابى . بقيود الاخلاق .

أليست غنائية العرب الساميين هي التي تفاعلت في نفوس بعض شعرائهم المثقفين فكونت جناحاً آخر للشعر العربي نسجت به النفس المؤمنة وحلقت به في جو خاص فكانت الصوفية ، فطلع ابن الفارض وابن عربي وابن سينا في عينيته ، رسل روح رمزية في البيان الشعري العربي ، ومالت ببعض اعلامها الى الحكومة وطوفت في ارجاء الفكر والتجارب واستساغت من ضروب الفلسفة اليونانية ما حلا لها فكان ابو تمام والمتنبي وابو العلاء المعري ؟ وهذا الاخير استحق ، على عماء ، ان نسميه ابصر الشعراء في ظلمات النفس واهداهم الى اساليب الانشاد الساخر من الحياة والمهوي بكهرياء .

الانسان عن اوجها الى حضيض الضعة والاستخفاف حتى القول بانقراض الجنس البشري
اما الغنائية التي كانت تصدر عن منابع النفس مختلطة بتأثرات الحواس ، والتي
بدأت تنفخ الادب العربي بروائعها ، منذ اقدم عصوره ، فقد كان راسمو خطوطها الاول
اوساً وزهياً وكعباً والخطيئة فعرف هؤلاء ومن نسج على منوالهم بشعراء « المدرسة
الاوسية والزهيرية » المشهورة في الاغلب ، بتصويرها الحبي .

وضعف شأن هذه « المدرسة » في صدر الاسلام الثاني خاصة ، لانصراف الشعراء
في تلك المرحلة ، الى خدمة السياسة والاحزاب والخلافة انصرافاً ألهاهم عن العناية
بهذه الناحية المصورة ، فلم يتسّموا فيها بارزاً الا في الغزل الناهض ، على عذريته واباحيته
الى تمثيل العواطف والحاسن والمغامرات تصويراً بلغ حدود الروعة فبقي ، حتى اليوم ،
مثالاً يرمي اليه في بدائع جميل وعمر وغيرهما من الغزلين المتقدمين .

وكان على خزانة الشعر العربي ان تنتظر البحري وابن الرومي لتعرض الغنائية
لوحات دقيقة الالوان واضحة الوجوه مستطرفة الفن ، فتبدو فيها ملي شرف من الخلود
ملائمة بين الجمال والموسيقي وبين الايقاعين اللفظي والمعنوي ، ومن محاسن هذا الوصف
اخذ كثير من شعراء العرب ، الى ان طلع الشعر الاندلسي موسوماً بمفاتن الطبيعة مسترخياً
للعواطف يلين بليتها ويأسى لاساها ويتفلت ، من قيود القافية الموحدة لايقاع الابيات
فكانت الموشحات وكان بعضها « قطع الرياض »

وجماع القول ان العرب لم يستقم لهم سبيل الى الملحمة في نطاقها الواسع فحملوا
لواء الغناء في لغة خلقت طيبة لتمثيل حالات النفس البشرية وقرضوا شعرهم في اوزان
لها من موسيقاها وانسجام قصيدها ما ارتفع بخلود ايقاعها الى مرتبة ابداع الملاحم ،
ومشت على العصور الطويلة تحتضن ماتستحدثه الحواضر من انغام ، وهي وليدة الخداة
في البادية ، وهكذا باهت الصحراء بابداع الغناء أحياناً للوحي وجناحين للخلود .

صلة الشعر العربي

بالملوك والعظماء

إذا كان الادب لسان الأمم المعبر عن درجة رقيها وانحطاطها بصورة خاصة فإن الأدباء المرتبطين بملوكها وعظماؤها ، ولا سيما الشعراء منهم ، هم أكثر الناس ايضاحاً لمبلغ الحرية الفكرية والتزعات التطورية التي تنشأ في بيئتهم . وهم المعلنون درجة الاستقلال الفردي الادبي في كل عصر من العصور ؛ سواء أكان ذلك منهم عفواً او عن تعمد .

ومن طالع بعين المنعم البصير مدائح زهير في هرم بن سنان والحارث بن عوف ، والمنخل اليشكري والمتلمس في صاحب الحيرة ، والحطيئة في علقمة بن علاثة والوليد بن عقبة والزبرقان ، والنابعة في آل غسان ، وجريز في الحجاج ، والفرزدق في سليمان بن عبد الملك ، والشاعرين الكميث والسيد الحميري في بني هاشم ، وابي نواس في بعض الخلفاء ، وسروان بن ابي حفصة في المهدي وابي تمام في المأمون والمعتصم والوائق والبحثري في المتوكل ، وابي الطيب المتيني في كافور وبعض الامراء غير سيف الدولة ، وابي فراس في اهله وقومه ، رآهم غالباً ، ان لم نقل دائماً ، شعراء اغراض ومناسبات

لا تلامس حاجة الادب المثلى في شيء يذكرو ولا يدخلون بنتائجهم المدحي الى غور
من اغوار الحياة دخول مستكنه ؛ وقلما تشعر ، وانت تقرأ هذا الادب الشعري أن
نزوة ادبية صرفة حدث بالشاعر الى النظم . وما أبلغ صراحة ابي فراس الحمداني
حين قال عن مدحه :

« نطقت باهلي وامتدحت عشيرتي ، فلا انا مدّاح ولا انا شاعر »

وما اجدر بعض من تقدم ذكرهم وكثير غيرهم بأن يقولوا انهم ابواق تعلن فضل
بعض الناس عليهم او تتعنى بمجادهم ومآثرهم صادقة مرة وكاذبة مرات فندر ان
يوتفوا بهذا المدح عن درجة المتكسبين او المستجدين او المسترضين الى مرتبة الشعراء
الخالدين عالمياً او الى مرتبة انفسهم في المناحي الشعرية الاخر التي وافقت هوى في
نفوسهم .

ولكي يستطيع الشاعر ان يرضي الادب والمدوح ويسم شعره بسمة الادب الحر
يجب ان يكون مزدوج الشخصية ازدواجاً ترجح فيه طبقته المستقلة ادبياً على شقيقتها
المربوطة بالمدوح سياسة او زلفى وما كان من منظوم شعراء الملوكة والعظماء صرف مدح
او فخر او اعلان رأي سياسي او غير ذلك مما تدعو اليه عوامل السلطان المهيمن ، يتزل
عن القدر الذي ترضى عنه دراسة الادب الصحيحة ؛ فلا يؤلف جزءاً قيماً خالداً في خزانة
الشعر العربي على الرغم من الدوافع التي تحاول رفعه الى تلك المتزلة ، منزلة الخالدين ،
اذ ان حاجات الادب مقدمة على حاجات الاشخاص في بناء هيكل لشعر الخالد ولان
الافراد ، مهما علت منزلتهم وصمت اغراضهم ، لا بد لهم من ان يضطروا الشاعر للاهتمام
بعرضهم عن جوهر الحياة وبقضاء شأنهم الخاص واهمال شأن الادب العام .

فيتضح مما تقدم ان صلة الشاعر المادح المتفرد بعظماء او عظماء من سادة عصره
متوقف توثقها على مؤهلات واستعدادات متجمعة في نفس الشاعر ومزاجه وعلى قابلية
المدوح الكبير او المنيء الباذل لشخصية المادح الاديب او قرباه منه بشتى الاواصر
واجترأ في البحث والعرض نعهد الى الكلام على اربعة من جياذ من يمثلون الشعر العربي

في بلاط الملوك ومجالس العظماء وهم :

- ١ - النابغة الذبياني في بلاط الحيرة .
- ٢ - الاخطل التغلبي في بلاط بني امية .
- ٣ - ابو الطيب المتنبي في بلاط بني حمدان .
- ٤ - احمد شوقي في بلاط مصر « الخديوي » .

وهكذا يكون لنا مرور المامي^١ بأربعة شعراء يؤلفون سَلماً في مجالي البيان العربي في مختلف عصوره وادواره ، فهؤلاء توقفوا لجعل جو البلاط عنصراً شعرياً وادخال حياة الامراء في حيز حياة الادب .

الناطقة الذيباني

في بلاط الحيرة

الناطقة الرمجل :

دخل زياد بن معاوية الحجازي المولد والذيباني المتزعرع المعروف بالناطقة بلاط الحيرة^(١) فاتصل بالنعمان ابي قابوس ، صاحب الحيرة ، وكان قد نبه ذكره في الشعر وعظم قدره في قومه فكان النعمان لا يعدل به شاعراً ، ممن اختلفوا الى بلاطه وكلهم من اقطاب الشعر العربي في ذلك العهد كالتامس وطرفة والمنخل اليشكري وحسان بن ثابت وغيرهم ، وله ديوان شعر عني به المستشرق « هارتويغ ديرنبورغ » H. Derenbourg سنة ١٨٦٩ وشرحه وعلق عليه .

وقيل ان حمل عليه بعض المحظونين في بلاط الحيرة ، لعداوة وقعت او لحسد تقاوم فوشي به الى ابي قابوس ، ودرى الناطقة بالوشاية فهرب الى بصرى لاجئاً الى الخارث الغساني يدعاه . ولم يطل به الزمن حتى شرع يرسل اعتذارياته المشهورة الى ولي نعمته اللخمي موثقاً سبيل العودة اليه . وكان ان عاد الى الحيرة عزيز المكانة عند النعمان ولكن هذا ادركه الاجل فلم تدم القربي الثانية طويلاً .

(١) الحيرة اول بيعة تماس بين الثقافتين العربية والفارسية « بحث لنسيم نصر »

ويرى بعض المحققين في تاريخ الادب آراء جديدة لا تتفق ومتقول الرواة والمؤرخين القدماء منها في هذا الموضع من الكلام رأى الدكتور طه حسين وهو : « ان غضب الثعنان على النابغة كان لاسباب سياسية » فالنابغة مدح الغساسنة وهو يختلف الى بلات الحيرة والمناذرة والغساسنة أبناء عمهم ، كما يذكر التاريخ القديم ، ولكنهم بعد تركهم اليمن استمروا في عدا طويل شديد ؛ وكان من البديهي كما يرى الدكتور طه ألا يرضى صاحب الحيرة عن شاعره المفضل الاقرب ان هو مدح امراء غسان اعداء دولته لاعتقاده ان تقديم النابغة عنده على سواء من الشعراء سبب كاف موجب لاختصاص المدائح الذبيانية ببلات الحيرة دون غيره .

على ان المقصود هنا بالذات ليس درس هذين الرأيين وتوجيه الواحد على الآخر فكلاهما معقول مقبول ولكن المهم لدينا الآن هو عرض شخصية النابغة وشاعريته صاحبتين للبروز في بلات الحيرة الى حد بعيد اجمع عليه مؤرخو الادب ووارسوه كما اجمعوا او بالاحرى رجحوا رأياً آخر وهو : « النابغة هو أحد الثلاثة المقدمين في الجاهلية وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة وهذا من الاشراف الذين غض الشعر من قدرهم كما غض من قدر امرئ القيس . »

شخصيته :

« قذاها ان صاحبها نجيل يحاسب نفسه بكم اشتراها »
يقال ان هذا البيت ياكورة منظوم النابغة ؛ وسواء أكان البكر ام الاخير فان فيه نزوة اباء صادقة تشير الى ان الرجل الشاعر يحمل في قرارة نفسه نزعة اريستقراطية جمعت له من البيت الذي خرج منه والمثلة التي ادركها بكفاءته وبروز قدره ؛ والى هذا أشار حين رد على توعذ زرة بن خويلد بقوله :

« حولي بنو دودان لا يعصوني وبنو بغض كلهم انصاري »
وبنو دودان من بني اسد وبنو بغض من بني عبس واسد وعبس من كرام العرب

والجليلين في حوماتها فهو اذن من اسيااد اسيااد العرب .
 والناطقة ممن بلوا الايام فكانت انفسهم محكاً يطوفون في بأساء الحياة وليتها
 بين الشامتين والحاسدين الكثير ؛ ولقد خرج غالباً من تجارب دنياه محافظاً على كبر
 نفسه متحفظاً الادب العربي بمقاطع شعر هي من ابدكار الحكم العربية والمراس الرفيع
 منها قوله :

المرء يأمل يعيش وطول عيش قد يضره
 تفنى بشاشته ويبقى بعد طول العيش مره
 وتحونه الايام حتى لا يرى شيئاً يسره
 كم شامت بي ان هلكت وقائل لله دره

ولكم يخلق بنا ان نلحق بالشاعر الى ميدان غزله حيث يكتبو به جواد الكبر
 فتمسكه بذله ونجذبه من اطراف صنعتة وان لم نظفر به ذليلاً هناك فندير جداً ان
 ندركه كذلك في مكان آخر . ولقد تعقبت النابتة فوجدته حريضاً على قدر نفسه
 حتى في مواطن اذلال الحب وخضوع المولعين فاسمعه يقول :

« لولا حباثل من نعم عقلت بها . لا قصر القلب عنها اي اقصار
 فان افاق لقد طالت عمايته والمرء يخلق طوراً بعد اطوار »

فهو في بيته الثاني غير امرى القيس ، امير كندة الشريد ، حيث يقول في معلقته :
 « تسلت عمايات الرجال عن الهرى وليس فؤادي عن هواك بمنسل »

وان كان شاعرنا الديباني قد تواضع في خطابه الملوك ، كما سنرى ، فهذا التواضع
 هو الطريق الاولى الى قلوب اصحاب التيجان وارباب الامارة وهو نقطة الدائرة من
 بحثنا في اختصاص بعض الشعراء بمديح بعض البلاطات وقرباهم من اصحابها عنوة على
 غيرهم من جياذ المنظوم العربي العالي ، وهذا التواضع لا يعني اهمال الشاعر اباة ته
 وقيمة نفسه لانه ان انحدر الى ذلك الدرك تلتوي دونه طريق البلاط .

شاعريته :

الخيال الشعري محدود الارتقاء كما يرى بعض العلماء ؛ وهذا هو ميروس ما يزال نابغة الشعراء ، وقد مرَّ على وفاته نحو ثلاثة آلاف سنة والنابغة الذبياني وامرؤ القيس وغيرها من قدماء الشعر العربي ما يزالون غاذج شعر جنل ومتجدد خيال طبيعي خصب على الرغم من مطاوي الزمن البعيد الذي فصلنا عنهم كأحياء نر على هذه الأرض وعلى كره من البداوة التي عرفوها واشتملت على شخصياتهم والحضارة والعمران الذين نمت بها ونحسها مكيفين لمعنوياتنا شئنا أم أبينا .

فأني الزمن بحقوقه وللأدب في تجديده أن ينال من قيمة هذه الابيات الخالدة الروعة :

« أخلاقُ مجدك جَلَّتْ ما لها خطرٌ في البأس والوجود بين العلم والخبير
متوجَّ بالمعالي فوق مفرقه وفي الوغى ضيغمٌ في صورة القمر »

.....

وانت ربيعٌ ينعش الناس سيبه وسيفٌ أغيرته المنية قاطع
فأنك كالليل الذي هو مدركي وان خلت أن المتأني عنك واسع

فهي ابيات غنية عن الشرح والتأويل والتفسير ؛ فأخلاق المجد والتتويج بالمعالي ، والضيغم في صورة القمر ، والربيع المنعش بسيبه . . . والليل المدرك الهارب منه . . . كل هذه المعاني مما يدهش الناس وبينهم الملوك ملوك الحكم المفتقرون الى ملوك الكلام ؛ ولا سيما الى ملك شعر كالنابغة الكريمة المحتد المدرك كيف يستكبر على النعمان ويرضيه مادحاً ومتواضعاً في آن واحد كما في قوله :

« وكنت امرء لا امدح الدهر سوقه فلست على خير اذك بجاسد

اغضاه يهبط الجيرة :

لقد كان الملوك وما يزالون حتى اليوم ، في معظم بقاع الدنيا ، محرضون على ان لا

يستوزروا ولا يأخذوا في خاصتهم وحاشيتهم ولا يقربوا منهم غير النبلاء والامراء ؛
ولما كان الشاعر قديماً يرفعه شعره الى رتبة قربي الملوك ، ولو كان وضع النسب فأحر بالنابعة
ان يحرض النعمان ، صاحب بلاط الخيرة ، على اختصاصه بدائحه دون سواه ؛ وأخلق
بالنابعة ان يخص بالشعر المنسلخ عن نفسه ملكه الخيري فيقطع عن الشعر بعد وفاته
على حد قول الرواية .

ولو استعرضنا بعضاً من الشعراء الذين كانوا يختلفون الى بلاط الخيرة ويذاحمون
النابعة على منزلته فيه معتمدين اساساً للشاعرية ما قدمناه ؛ العقل والخيال والابداع ،
سهل علينا ان ندرك لماذا اصطفاه النعمان ، ابوقابوس ، دون سواه مدركين ايضاً ان
المناذرة اجمالاً ذوو ميزة عالية في تقدير الادب وبصورة خاصة الشعراء ؛ فحسان بن
ثابت شاعر كبير لكنه دون النابعة مدى خيال وان وازاه عقلاً ومال الى مقارنته
ابداً في الجاهلية ؛ والحرث بن حزة اليشكري قد يرجح عليه عقلاً ولكنه يهوي
عن معادلاته خيالا وابداعاً ؛ والمتلمس تنبذه اباء الملوك وعظمتهم من دائرة خاصتهم
لشر لسانه قبل ان تنظر في قيمة شعره ومدى خياله ورونق روائه وما الى هذه من
جوهر الشعر وعرضه .

فمؤهلات النابعة للحظوة الاولى في بلاط الخيرة ، كثيرة منها ما هو شعري ومنها ما هو
شخصي ؛ ولكي تتكتم لنا فكرة مجسمة عن القدر الذي احرز في عيني النعمان ابي
قابوس نأخذ بالرواية التالية :

« اغار النعمان على بني ذبيان فأخذ منهم وسي سبياً من غطفان واخذ عقرب ابنة
النابعة فسألها من أنت ؟ فقالت : « انا بنت النابعة » فقال : « والله ما احد اكرم
علينا من ابيك ولا انفع لنا منه عند الملوك » ثم جهزها وخلصها ثم قال : « والله ما ارى
النابعة يرضى بهذا منا » فاطلق لهم سبي غطفان واسراهم « فمدحه النابعة بالدالية التي
مطاعها :

أهاجك من سعدك مغني المعاهد بروضة نعمي فذات الأساود

وسواءً عندي أقرّ الاصمعي هذه الرواية او لم يُقرّها فهي ، ان لم تكن واقعة ،
فممكنة الوقوع ؛ نتمثل فيها كرم النابغة عند النعمان ونفَعُهُ له عند الملوك ، ونتبين ان
الشاعر لم تهو شخصيته في عيني ممدوحه فيدرك الملك ، على كره من كبرياء الغازي
الساقي ، ان شاعره لا يرضى منه باطلاق سبية ، بل باخلاء سبيل السبايا والاسرى من
غطقان جميعاً . وهكذا نرى ان كرامة النابغة في عيني النعمان تلغي نتائج غزو كامل
ولا تبقى منها الا على قيمة الغلبة المعنوية .

ولو شئنا ان نحصر على رضى الاصمعي ، لامكنا ان نعرض الديباني الشاعر في
بائسته الاعتذارية شخصية حافلة بدالة المادح على الممدوح وبعقلها الواعي المستكبر
وابداعها البياني في مثل قوله :

لئن كنت قد بُاغت عني وشايةٌ	لمبلغك الواشي أغشُ واكذبُ
ولكنني كنت امرأً لي جانبُ	من الارض فيه مسترادٌ ومذهبُ
ملوكٌ واخوانٌ اذا ما اتيتهم	أحكم في اموالهم وأقربُ
ألم تر أن الله اعطاك سورةً	ترى كل ملك دونها يتذبذبُ
لأنك شمسٌ والملوك كواكبُ	اذا اطلعت لم يبدُ منهم كوكبُ
ولست بمستبق أخالاً تلثه	على شعث اي الرجال الهذبُ
فان الكُ مظلوماً فمبد ظلمته	وان تك ذا عتي فمثلك يعتبُ

وكأني بالادباء والمؤرخين الذين قالوا عن النابغة انه ؛ « احد الاشراف الذين غض
الشعر منهم » عولوا كثيراً على مثل هذا البيت الاخير ؛ « فان الكُ مظلوماً فمبد ظلمته . . »
او أعاروا كثير انتباه لرواية حماد القائلة ؛ « ان عودة النابغة الى النعمان كانت رغبة في
نياق النعمان العصافيرية وهي من خيار النوق » غير آبهين لقوله :

« ملوكٌ واخوانٌ اذا ما اتيتهم أحكم ، في اموالهم واقربُ
والى ان الملوك هم اسياد الناس ، شعراء وغير شعراء ، وخطاب اصحاب القصور
يستدعي احترام جانبهم وخفض الجناح لهم توفراً على الكرامة عندهم »

وغير مقدرين ان عطايا الملوكة هي اكثر الاحيان اشعار بقدر المقدمة له وقيمته عندهم ف
وهكذا كانت حال النابغة في بلاط الحيرة ان لم تكن كذلك في ظلال العباسية
فروابط الاختصاص بالبلاط توفرت له في كنف التخمين اكثر منها في كنف اصحاب
بلاد الشام ؛ فاسمعه يقول في باب النعمان ابي قابوس وقد منعه لحاجب عصام من الدخول
على الملك المشرف على الموت :

« ألم اقسم عليك لتخبرني أحمل على النعش الهمام
فاني لا ألام على دخولي ولكن ما وراءك يا عصام
فان يهلك ابو قابوس يهلك ربيع الناس والشهر الحرام
ونغسك بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سنام »

ألا تشعر ان وراء قوله : « فاني لا الام على دخولي » لفظة المحب المخلص ودالة
الحبيب المبعد ؟ وهذا العيش الاجب الظهر « بعد ابي قابوس » ربيع الناس وشهرهم
الحرام » يعطيك الدليل المقنع بان النابغة كان عالقا بالنعمان دون سواء وان النعمان الذي
قدمه على سواء من الشعراء كان مدركا ذلك الحب ومقدرا افضلية شعر الديباني على
غيره من الشعراء المجيدين .

وما النابغة على نعمته بعطايا صاحب الحيرة وعزته بقرباه منه وعلا قدره بتحكيم
عكاظ الا واحد من هؤلاء الذين اجاد ، هو نفسه وصفهم في كفاح دهرهم اذ قال :

من يطلب الدهر تدركه مخالبه والدهر بالوتر ناج غير مطلوب
ما من أناس ذوي مجد ومكرمة الا يشد عليهم شدة الذيب

وخلاصة القول ان نابغة ذبيان وجد طريق اختصاص النعمان به بما اجتمع له من
نبل اصل وجودة شعر وقيمة اخلاق ورجاحة عقل ؛ مؤهلات لم تجتمع لغيره من
معاصريه فقدرها له حق قدرها ملك الحيرة ولذا رأى الدكتور طه حسين أن الاشراك
في هذا الاختصاص كان السبب في الجفوة الموقته التي حصلت بين الشاعر وصاحبه
الكبير لا الوشاية بأذية شعر كما تخبرنا الرواية القديمة او بالاحرى الروايات القديمة .

الاخطل التغلبي

في بلاط بني أمية

الاخطل الرجل :

هو غياث المكنى ابا مالك والملقب بالاخطل من قبيلة تغلب النصرانية في معظمها ان لم يكن في مجموعها وتغلب هذه هي التي قيل فيها : « لو ابطأ الاسلام لا كنت تغلب العرب » . تفتقت في نفسه براعم الشاعرية الفذة ولما يزل حدثاً يقيم في الحيرة فشرع يناوي . ، في مهاجاة مرة ، كعباً بن جعيل ، شاعر تغلب قبله ، فظهر الاخطل الناشئ . على خصمه الكبير ؛ فاصبح شاعر تغلب غير مدافع . وامتد له سلم الرقي الشعري حتى لقب بـ « شاعر بني أمية » و « شاعر العرب » .

وأواع ابو مالك بالخمرة فكان لا يجيد النظم الا اذا شرب ؛ ولكن شعره ، على الرغم من رائحة الخمرة العباقة منه ، ظل عفيفاً فقال مشيراً الى هذا : « ما قلت شعراً تستحي العذراء ان تنسده اباها »

مصرته الشاعر في عصر الاخطل :

لقد طلع الاخطل على الشعر في فترة من الزمن ارتفع فيها الشعر العربي الى مرتبة لم يبلغها من قبل ولا بعد ؛ لان انتقال الدولة من الحجاز الى الشام وخود الرغبة في التقشف الديني انتقلت بالشعر العربي من درك الالهـمـال

والاغفال الى ذروة الانشاد والعزة . ولبلوغ الشعر الاموي هذه الدرجة من الشأن العظيم اسباب اشهرها :

١ - الرجوع الى المناورة والعصبيات الجاهلية لتفتي الاحزاب السياسية والتزعات الخلافية .

٢ - الفتور في الورع الديني والتراخي في حفظ القرآن الكريم

٣ - اغداق العطايا من بيت المال على الواقفين قرائحهم على خدمة سياسة البيت المالك او تعظيم بيعتهم واعلان قانونيتها .

٤ - رغبة الخلفاء انفسهم في نظم الشعر على انواعه غير مكثفين ببعض ابيات حماسة كفعل الخليفة ابي بكر ، او بتنف من شعر الحكمة شأن الخلفاء عمر وعثمان وعلي .

٥ - مباراة الموالي السادة العرب بالفصاحة العربية شعراً لاعلاء شأنهم عن طريق المنظوم العالي .

٦ - لجوء فقراء البادية الاذكياء الى التلهي بقرض الشعر عما وصلوا اليه بسبب ضغط عمال الامويين في البادية وارهاقهم اياهم بالضرائب ؛ وربما لجأ الى نظم الشعر بعض اغنياء الحجاز المحظور عليهم التدخل في سياسة الدولة كعمر بن ابي ربيعة .

على قاعدة هذه الاسباب تبوأ الشاعر الاموي الموهوب مرتبة سامية ألجأت الخليفة الاموي الى ان يتسلح به الى جانب سلاحه العسكري وتحوطه بعمل قساة دهاة من امثال الججاج وابن ابيه ؛ لعلمه ان مدح الشاعر له دليل على رضى قبيلته عن سياسة الدولة لانه يُعتبر عن رضاها وسخطها ، والقبيلة تعتبر اكرام شاعرها وتقديره اكراماً لها وتنويهاً بمقامها .

وقبل ان نلج الكلام الخاص بالاخطل نورد رواية صغيرة ذكرها صاحب الاغاني ، المنبع الفياض بتاريخ الادب العربي ، ندرك منها مبلغ القدر الذي اجتمع للشاعر في ذلك العهد ، قال الراوي ما مفاده :

ان معاوية لما عزم البيعة لابنه خشي مغبة هذا الحدث الانقلابي في انتقال الخلافة

وخاف ان لا يحسن الناس الثقة بهذا التدبير ، لاسيما ، والمرشحون للخلافة كثر ؛ وبلغه في امر هذا الحدث ما يسوءه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبدالله بن عامر وغيرهم ؛ فدعا يزيد بمسكين الشاعر وامره ، وهو شريف من بني تميم واحد خصماء الفرزدق في الهجاء ، أن ينظم شعراً وينشده في حفل من مجلس الخليفة معاوية . وكان ان اجتمعت وجوه بني امية في بلاط الشام فدخل مسكين ومثل امام صاحب العرش الاموي وابنه يزيد عن يمينه تحيط بها حلقة من اشراف الناس وامراء امية وكبرائهم ، وانشأ يقول قصيدة منها :

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد ؟
 بني خلفاء الله مهلاً فانما يبوئها الرحمان حيث يريد
 اذا ما المنبر خلّاه ربه فان امير المؤمنين يزيد

فقال معاوية ؛ « ننظر فيما قلت يا مسكين ، ونستخير الله » ؛ فاقراً الحاضرون بيت الشاعر الاخير . وسار هذا الشعر في العرب فقال « المسكين » عطايا غير « مسكينة » .

ولكن مسكيناً ، على مقامه في الشعر ، لم يكن الشاعر الذي يرغب فيه القائلون على سياسة البيت الاموي المالك ، فطلبوا كعباً بن جعيل ليهجو لهم الانصار . ولما لم يتوفق يزيد الى اقناع هذا بالاختصاص بهم وهجو الانصار ، دّله كعب على الاخطل متوقفاً من ذلك وقوع الشاعر الشاب في التهلكة ؛ فكان ان لمع نجمه واخل ذكر كعب المضمر له السوء وكثير غيره من الخصوم .

شخصية الاخطل :

« قوم هم قتلاوا ابن هند عنوة عمراً وهم قسطوا على النعمان »
 من هذا المنبع ، الذي انتفخ به الفرزدق على خصمه جرير في ذكره تغليبة الاخطل صديقه ، استمد هذا الشاعر النصراني جرأة على خصمائه وجسارة على اعدائه واعداء اصحاب العرش الاموي . ولكم يتراءى لنا ، من خلال ابيات شعره ، مزهواً بنفسه

وقومه وشعره شأنه حين يصف نفسه مثلاً يجرُّ الذيل زهواً على أميره عبد الملك بن مروان
في قوله :

« خرجت بالذيل زهواً كأنني عليك أمير المؤمنين أمير »

او مباهياً بجرأته وقوة بيانه ذائداً عن حياض الخلافة الاموية اذ يقول :

« بني امية قد ناضلت دونكم ابناء قوم هم آووا وهم نصروا »

ومما لا جدال فيه ان قابلية البيت الاموي المالك تذوقت الى حد بعيد مواهب
الاختل الثغلي واعجبت بشعره وذوده وراقها مزاجه المرح على رغم من ربح الحمرة
المتزجة بانفاسه دائماً وقطرها المتحلب من لحيته احياناً .

شاعريته :

اجمع اهل زمان الاختل على انه امدح الشعراء الذين شاعت قافيتهم الى اطراف
المملكة العربية في ظلال بني امية ، وقد يكرن اهجاهم في عرف كثير منهم ؛ يشهد
له بصحة هذا الرأي الاخير قول جرير عنه ، وهو الدُّ خصومه : « ادركت الاختل
وله ناب ولو ادركته وله نابان لاكني » ؛ وفوق هذه الشهادة وذلك الاجماع قول بعض
الادباء في عصر الشاعر : « لو عاش الاختل يوماً واحداً في الجاهلية لكان
اشعر العرب » .

بيد انني انوه بما تقدم ، عن طريق العرض المنقول ، غير معتمد في الكشف عن
شاعرية الاختل الا على درس المدى الشعري وعلى تقدير طاقة الشاعر على خلق هذا
المدى مع الاخذ بجمل الاعتبارات والمهيات التي تمهد له طريق الخلق وتقدير الحواجز
التي تقوم في وجهه فتحجز عليه انفساح هالته الشعرية . ولقد تغلبت شاعرية الاختل
على حواجز كثيرة ؛ فكان ، على رغم من غربة الدار والدين والعصية فبعض
العادات والاخلاق ، يرود دنيا من الشعر حافلة بالخيال والعقل والابداع قال فيها حماد
الرواية معجياً : « وما تسألوني عن رجل حجب الي شعره النصرانية . »

واني ارى هذه الشاعرية النشوى وقد « جازت حكومتها » على كره من خصمها
جرير اذ قال :

« يا ذا العباوة ان بشراً قد قضى الأ تجوز حكومة النشوان »
فاخذت تتدفق بالمنظوم الرائع محبة اليك خيال الجاهلية في روائه الاموي ،
معلنة لك قانونية انتقال الخلافة المحمدية بلسانها المسيحي ، مشيدة باوصاف الحمرة
وبخصائصها عند سدة الخلافة وفي ناديها . شاعرية تصلب مرة كشاعرية الفرزدق
ولاتبونبوتها عن الذوق ، وتلين اخرى كشاعرية جرير دون ان تهوي مثلها عن
مقارعة النفس الجاهلي .

أخصاصه السياسي يلاط الامويين :

للأمويين ميزة خاصة وهي كثير اهتمامهم بأحياء لغة العرب وآدابها ؛ فكان
خلفاؤهم يعنون ، علاوة على اعباء الملك والفتح وقمع الفتن ، بحماية العلماء والادباء
ولذلك علا في ظل دولتهم شأن الرواة والشعراء واجروا لهم العطايا السنية من بيت
مال الامة وبالغوا في اكرامهم مبالغة قد لا نحسن قتلها اليوم في عصر الصحافة الضخمة
والاذاعة العجيبة .

غير ان الحاجة التي الحت على يزيد وابيه معاوية ليأخذا شاعراً مبدعاً في خاصتهما
هي بحق اشد من حاجة النعمان ابي قابوس الى جذبته نحو بلاطه النابغة الذبياني ؛
فصاحب الحيرة اراد ان يحتفظ لنفسه باوسع شعراء زمانه تدليلاً بعزة دولته ، ولذلك
سأه ان يدلل شاعره بمنعة دولة خصومه الفساسنة استياء زال او اوشك حين عاد اليه
النابغة نادماً صادقاً في جبه ومجدداً مدائحهم ، اما صاحب دمشق من بيت ابي سفيان
فكان ينتظر من شاعر بلاطه ان يقض مضجع الخصوم الهاشميين وغيرهم المتألمين على
دولته بما هو ابلغ من المدح الخالص وما هو اثبت من صرف تعداد الفضائل والامجاد
كان ينتظر ما ينتظره اليوم صاحب الدعوى في ايامنا هذه من محاميه الساهر على

الدفاع عن قضيته المحيط بموضوعها من كل وجوهه . نعم ، كان يطلب من الاخطل ان يكون المحامي عن الخلافة الاموية ، وان يجعل من قوافيه جريدتها الجائبة فجاج مملكتهم العربية آنذاك لبث الدعوة فابدى في كل ذلك واجاد فبلغ الذروة مما عرف في الشعر العربي ، بالمهجا السياسي . وكثيراً ما كانت مهاجاة الشعر في ذلك العهد تتحول الى مشادة كما حدث للمهاجرين والانصار على لساني شاعريهم سديف وشبيب ؛ فكان الاول منها يخرج في جماعة من موالي بني هاشم في مكة والثاني في جماعة من موالي بني امية ، فيتناشدون الهجاء فيتبادلون السباب ويتنهون بالتجالد بالسيوف ؛ وهذا ما عرف عندهم بالسديفية والشبينية .

ولنا بياكورة دفاع الاخطل عن العرش الاموي شاهد ينطق بوطاة شعره على خصوم آل سفيان وهي تلك الرائية ، العاصفة بشاعر الانصار المتألمين على معاوية والتي منها :

« خلوا المكارم لستم من اهلها وخذوا مساحيكم بني النجار »

« ذهبت قريش بالمكارم والعلي واللوم تحت عمام الانصار »

ويبلغ هذا الهجاء الناسف مسامع الانصار فيفد النعمان بن بشير الانصاري ، خطيب اليربيين وشاعرهم ، غاضباً هائجاً على معاوية ويدخل مجلسه وينشده الميمنة المشهورة التي اوشكت ان تقطع لسان الاخطل ، ارضاء الانصار الغاضبين ، لولا ان فاء يزيد عليه وحماه ؛ والتي منها قول الانصاري عاتياً مطالباً بعقوبة الهاجي :

معاوي الا تعطنا الحق تعترف لحي الازد مشدوداً عليها العمام

ويشتمنا عبد الاراقم خلّة وماذا الذي تجري عليك الاراقم ؟

فما لي ثارٌ دون قطع لسانه فدونك من يرضيه منك الدراهم

ومنها قوله متوعداً مهدداً :

واني لاغضي عن امور كثيرة ستبقى بها يوماً اليك السلام

اصانع فيها عبد شمس واني لتلك التي في النفس مني اكاتم

فما انت والامر الذي لست اهله ولكن ولي الحق والامر هاشم
 اما عهد الذروة الادبية والادلال على صاحب البلاط من حياة الاخطل فهي
 مرحلة اختلافه الى مجلس عبد الملك بن مروان ، اكثر الخلفاء الامويين استرخاء في
 العنت الديني واكثرهم فيثاً على شعراء دولته وادبائها ، وفي طليعتهم الاخطل المحرز
 من اعجاب الخليفة به مادفعه الى ان ارسل يوماً مولىً من مواليه ينادي على رؤوس الملأ :
 « هذا شاعر امير المؤمنين ، هذا شاعر العرب » . وربما لم يكن الاعجاب بالشاعر وحده
 الباعث على تلك المناداة ، اذ ان نفعة الخليفة عبد الملك على اعدائه ، قبائل قيس
 وشعرائهم ، جمعت الى الاعجاب في تفضيل الشعراء غير القيسيين من هم دون الاخطل
 مرتبة في الشعر ، فنال هذا ما نال بصفته رأس الشعراء الموالين واقصت الالسنه في
 مقاومة المناوئين ، ولنا برائته التي اكسبته لقب « شاعر بني امية » ما يكشف لنا
 بعض الكشف عن حرص صاحب العرش الاسلامي على شاعر مسيحي والتي منها قوله :

الى امرئ لا تعرّينا نوافله أظفره الله فليهنأ له الظفر
 الخائن الغمر الميمون طائر خليفة الله يستسقى به المطر

فقل هذا الشعر خليق بان يتمتع صاحبه بما يشاء من نعم العرش وتقديره ، أظفره الله
 فليهنأ له الظفر ؛ وفي خليفة الله يستسقى به المطر اعلان لقدسية الخلافة وحقها المنزل
 المنتهي الى عبد الملك وتشريف له أعلى من التشريف الذي نمي الى أسلافه أمويين او
 راشدين ، فقبل الاخطل لم يخاطب احد خليفةً باكثر من « امير المؤمنين » او « خليفة
 النبي » ، فاذا بمدوح شاعرنا يخاطب ب « خليفة الله يستسقى به المطر »

ومن لا يؤمن بقدسية المراتب والاشخاص ، على يد الشاعر ، يدعوه هذا الى
 الايمان بحق آخر اقرب الى العقل ، وهو انتهاء الخلافة قانونياً الى بني امية ، بصفة معاوية
 الذائد عنها ضد المتأمرين عليها ، دعوة صريحة المؤدى ، جريئة الهجوم اذ قال :

« ويوم صفين والابصار خاشعة أمدّهم اذ دعوا من ربهم مدد
 على الالى قتلوا عثمان مظالمه لم ينهم نشد عنه وقد نشدوا » ،

فيلوح المتأمل في هذين البيتين تجرّيمُ علي في مقتل عثمان أروع صورةً وابعُد مدى منه في وقوف معاوية خطيباً في جماعة من الناس ، وفوق منضدة امامه قيض عثمان الملتطخ بالدم واصابع زوجه المبتورة بسيف الغادر . وكان شاعر امية لا بل محاميها المبدع العاقل ، لم يكف بخلال القدسية والقانونية لخلافة مولاه ، فانهى يعلنها على الملا . كريمة مغيثة في خيال جاهلي خصب ورؤاء « ذبياني » التقى فيه بالنابغة ، في دليته ، جريئاً مجارياً على الرغم من تهيب الشعراء الاسلاميين كل شعر جاهلي فاصغ باليه يقول :

« وما الفرات اذا جاشت حوالبه	في حافتيه . وفي اوساطه العشر
وزعزته رياح الصيف واضطربت	فوق الجأجي من آذيه غدر
مسحفر من بلاد الروم يستره	منها اكافيف فيها دونه زور
يوماً باجود منه حين تسأله	ولا بأجهر منه حين يجتهر

وهكذا يكون الاخل قد حقق للأمويين ما كانوا يرجونه من خصه ببلاطهم في شيوع مثل هذا الشعر في حواضر العرب وبواديهم ، فهو انشاد رفيع ودفاع مجيد كسف شعراً كثيراً لطوائف متنوعة من الشعراء أخذت بناصر الامويين او تظاهرت بذلك زلّقى الى السلطان ، وافصح الحصوم ووجد طريقاً مباشراً الى نخوة العرب الفريدة وحساساتهم الدقيقة ، فكان بهذا الاختصاص الواسع راساً لمن ولجوا هذا الباب من بعده ، وان كان النابغة اسبق الى الالتحاق بالبلاط ، فالاخل لحق به في مهمة اشق ، وطريق اكثر وعورة ، فجاء مجلياً في حرب الكلام الشعري .

المتنبى وامارة بنى حمدان

المتنبى الرجل وشخصيته :

هو احمد بن حسين بن عبدالله الصمد الجعفي الكندي المكني بأبي الطيب والملقب بالمتنبى ، عربي العرق قحطاني العشيرة ؛ أما كنديته فهي نسب الى محلة بالكوفة وليس الى قبيلة كندة المعروفة .

وقد غمزه احد الشعراء في اصله فقال فيه :

أيُّ فضل لمن يطلب الفضل من الناس بكرة وعشياً
عاش حيناً يبيع في الكوفة الماء وحيناً يبيع ماء الحياً

ولكن هذا الغمز سهل الهدم على راس غامزه به ؛ اما الغمزة الرئيسية التي تصيب من المتنبى هدفاً مجسماً فهي اسرافه في اعلان كبريائه كقوله :

« ان اكن معجباً فعجب عجب لم يجد فوق نفسه من مزيد »

بيد ان المتنبى نفسه لا يبدو لك انه يريد ان يعرض علينا ذكر اب عرفه له ، ولكنه ، بمناسبة وبغير مناسبة ، يعرض علينا قدر نفسه المشتعلة على خلال ومواهب ضاق هو نفسه في تعدادها .

اما نفسه فهو مغرور بالغموض اكثر من حسبه فقول بعضهم انه حمدي الام لا

يؤكد اليه كل الركون ، وليس في قوله ؛

« ولولم تكوني بنت اكرم والد لكان اباك الضخم كونك لي أما »

برهان واضح يكشف لنا عن حقيقة تلك الام التي ولدت رجلاً قال في نفسه
واهلكه والباحث عن اصله ؛

« انا ابن من بعضه يفوق ابا الباحث والنجل بعض من نجله »

ومن قال عنه ابن رشيق في « عمدته » : « ثم جاء المتنبي فشغل الناس
وملاً الدنيا » (١)

ولنهمل النسابة بقدر ما ؛ لانها كانت ضرورة قديمة عند العرب وغيرهم من الامم
فاخذت تسقط بمرور الزمن وتجدد وجوه الحياة ؛ فقد اصبحت ضعة النسب مفخرة للنابعين
وحافزة تحذو بهم تسميها الفلسفة : « مركب النقص »

واني لذو ميل عظيم الى ان ادعيه عربي المنبعين ؛ الحسب والنسب ، بعد قوله :

« واني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف ان تسكن اللحم والعظم »

وانه لمن المهم في هذا الكشف الموجز عن متجدد الشاعر وشخصيته الامام
بمدارج صباه وثقافته ومنازعه استعانة بذلك على تفهم الاستعدادات والمؤهلات التي
هيأت منه شاعر امير وامير شعر .

ولقد أعانت درامة المتنبي في مكتب من مكاتب العلويين على تكوين شخصيته
الادبية مزيجاً من عناصر اشهرها :

١ - الميل الى الفن الشعري

ب - الاستعداد لتناول الناس بالسخرية والهجاء والمديح

ج - الانحراف الى الشيعة .

وكان خروج ابي المتنبي بابنه صبيّاً الى البادية مهياً من مهيئات المتنبي الشاعر وفي

(١) الشائع ان ابن رشيق لم يقل هذا اعجاباً ولكنه على كل حال كلام يقال بالمتني .

تبدية هذا قال بعض الرواة :

« وقد خرج المتنبي من الكوفة مع ابيه الى البادية فأقام فيها حيناً ثم عاد منها وقد نما جسمه وعقله وفصح لسانه واصبح فتي يملأ العين والاذن » .

وفي هذا الفتى الذي يملأ العين والاذن نلمس شخصية الشاعر المتوثب والثائر الطامح الذي يشق طريقه بين مخاطر المغامرات الكبيرة ، وفي مد وجزر من لين الدهر وشده عليه وعلى ؛ كره من جيوش الحساد والاعداء الذين جمعهم عليه بكبريائه وخروجه عن حدود الاطمئنان اليه .

وهذه الشخصية المتفشيّة في مسالك حياته وايات شعره ، تأثرت بعوامل سياسية وعوامل دينية واخرى ادبية واقتصادية فطوفت بصاحبها في بلاد كثيرة تتجاذب اعيانها وامراءها مرةً ويتجاذبونها اخرى ؛ ولكنها في كل حالة من حالاتها كانت تتعرض لدم الناس والدنيا حتى قال عن نفسه :

« ألايت شعري هل اقول قصيدةً فلا اشتكي فيها ولا أتعبُ

شاعريته :

لقد ظهرت على المتنبي في مستهل حياته الشعرية نزعة التقليد التي كانت من مفاخر الشعراء ، حتى في عصر المتنبي ، اذ كانوا يعتدون القدماء اساتذة شعر ومتحدي لمن كان ينظم في الادب المولد ؛ فدأب ابي الطيب في التثخين ، اسياذ الالاقية وكثير غيرهم ، قبل اتصاله بامير طبرية ، بدر بن عماد ، واطلاله على افقه الشعري الخاص به ابتداء من قصيدته المشهورة :

« أمعفر الليث الهزبر بسوطه لمن اذخرت الصارم المصقولا » ،

كلها تقريباً محاولات بلوغ شهرة واعلان قدرة على الشعر ؛ ونفسه المستكبرة الطامحة ، كما قدمنا ، كانت أبعد مرمى من مقام هؤلاء ومدى شهرتهم وشهرته حولهم ؛ لذلك تطلعت شاعريته ، وقد استوت على متفق مواهب متزنة عالية بعد خمود نزعة الاستقلال وخيبة المصلح ، الى ممدوح يغذيها بالمال والشهرة والمقام الرفيع لقاء شعر

هو في المديح نسيجٌ وحده .

واوسع الميزات انتشاراً في منظوم المتنبي اثنتان وهما :

١ - حسن المقابلة والمناقضة .

٢ - لباقة المبالغة والطباق .

وهاتان الميزتان وسائر الميزات الأخر تقوم كلها على 'جهدين' وهما :

١ - جهد الفن . ٢ - جهد العقل .

أما الجهد الفني فهو الذي حيَّه إلى الملوك والامراء ، بعد اجتيازهم مراحل غلواء الصبا وشروء الآراء ، بما اكتسب شعره من اسباب المتانة والبلاغة ورواء النعوت الملوكية . وأما الجهد العقلي فهو الذي جمع له المعاني الضخمة والمباني الثمينة وذهب به إلى اغوار الحياة مشرفاً على ارسطو ومرتباً به على صنوف التجارب فيجري الكثير من أبياته أمثالا على ألسنة الناس وتناول ديوانه الشراح والكتاب والشعراء فكان لهم فيه شغل شاغل مر عليه الف عام ولما يزل مستمراً .

والمدهش في ابداع هذه الشعرية انها غلفت جفوة كبرياء صاحبها ، وثقل ظله أحياناً ، يوشاح من جلال الشعر وروائه وجعلت من منظومه معرضاً لحكم الحياة ؛ فاذا الأدباء عامة ، والشعراء منهم خاصة ، متفقون في الاقبال على ديوانه ، أي ديوان المتنبي ورواية شعره اكثر من شعر سواه من اعلام الشعر العربي في مختلف العصور .

دولة بني همدان :

دولة بني حمدان عريضة الاصل ينتهي نسبها إلى تغلب بنت وائل . ولما ولي الموصل عبدالله بن حمدان ، المكنى بابي الهيثم ، في خلافة المكتفي ، أعلى مكانة أسرته فأخذ امراؤها يتعاقبون على الموصل ، تصلح طاعتهم للعباسيين حيناً وتفسد آخر ، إلى أن غلبهم على امرهم عضد الدولة بن بويه فانبشوا في البلاد من هضاب ايران إلى ضفاف النيل واستقر احدثهم ، وهو الامير سيف الدولة ، في حلب فتملك عليها ثم على حمص ، ولما مع الاخشيدي كافور مواقع حرية من اجل الولاية على دمشق ظهر فيها

اولاً ثم عاد فاخفق .

اما الوقائع الكثيرة التي دارت رحاها بينه وبين قواد الروم في ضواحي حلب فهي أيام ابتسم فيها الدهر للأمير الحمداني غالباً فغزاً ملكه وذاع صيته .

ولقد كان امراء حمدان في معظمهم ادياء وشعراء يجمعون الى غزاة الامارة ذوق الاديب ، والى بطش السيف حكمة القلم ، وفي مقدمة الحمدانيين الادباء ابو فراس الشاعر المعروف وابن عمه الملك سيف الدولة الاديب الناقد ممدوح ابي الطيب المتنبي . وابرز ميزات هذا العصر ، المعروف في تاريخ آداب اللغة بالعصر العباسي الثالث وفي تريخ الحكم بعصر الامارات والدول المحلية ، ثلاث ميزات رئيسية هي :

ا - اضطراب اركان الدولة .

ب - بلوغ الفكر شأواً بعداً من الحرية والنضج والانتشار .

ج - سيادة اللسان العربي على كره من النفوذيين الفارسي والتركي .

المتنبي برغل بلاط بني همدان

ضعفت يد الخليفة العباسي عن ضبط بقاع مملكته المترامية الاطراف فتعددت فيها الدويلات والامارات ، وكان لكل دولة قاعدتها وفي كل قاعدة بلاط يجتهد سيده في ان يجعله جديراً بالمباهاة به ، وفي مقدمة ما باهي به ملوك ذلك العهد كثرة ارباب الاقلام في خاصتهم ولا سيما الشعراء منهم .

ولكن سيف الدولة كان يجمع في بلاطه عدداً كبيراً من سادة الفكر العربي مدفوعاً بعامل آخر اسمى من دافع المنافسة الاميرية برجال العلم والادب وهو عامل اللذة الادبية الشخصية ؛ لذة الاديب بعقد حلقات الادب حوله والمتعة بجالي الفكر وروائع البيان حتى قيل في صفوة خاصته : لم يجتمع بباب احد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بباب سيف الدولة من الشعراء .

وكانت ريح المصادفات قد قذفت بالمتنبي ، الجوّابة في الحواضر العربية ، الى انطاكية لما جاءها سيف الدولة زائراً سنة ٣٣٧ هـ . ، فقدم ابو العشائر الى ابن عمه

الامير الحمداني ابا الطيب مطرباً مواهبه معظمها قدره الشعري . فاصطحبه الملك الى حلب
حيث طلع فجر الشاعر وانبثت قوافيه في مشارق بلاد العرب ومغاربها
وكان من عادة الشاعر اذا جاء يدح ملكاً ان يقبل الارض بين يديه ويقف امامه
مُنشداً ، فرغب المتنبي الى مولاه الحمداني ان يلغي له هذا المألوف ؛ فاجاب طلبه حباً به
وكرامة له واوصى به من روضه على الفروسية والطراد والمثاقفة واجزل له المخصصات
وأغدق عليه العطايا من مال وخيل وجوار وضع ؛ فقوت هذه المنح ابا الطيب في
داليته المشهورة مثل هذا :

« تركت السرى خلفي لمن قلّ ماله وأنعلتُ افراسي بمغملك عسجداً »

واكثر حساده فقال في القصيدة نفسها مثل هذا :

« أزل حسد الحساد عني بكبتهم فانت الذي صيرتهم لي حسداً »

وقد يلوح لدارس المتنبي ان اميره الجديد هو الذي عودّه حياة الامراء فقد كان الى
هنا لم يتعودها لكثرة ما لحق به من انكسارات نفس أقساها غصّة السجن ومألوفها
الفرار من الغاضبين والحاسدين والمكافأة على القصيدة بالتر من المال بشهادة قصيدته
« الدينارية » ؛ فاصمعه يقول عند قراره من ابن رائق :

« ذلّ من يغبط الدليل بعيش ربّ عيش اخفّ منه الحام »

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بيّت إيلا م »

على ان انّ تلك الانكسارات ، التي لم تغضّ من كبريائه إلا في الظاهر ولم تش
عنّان طموحه إلا في الساعات السود ؛ لم ترقّ به دون فائدة فقد علّته بالاختبار شيئاً من
المصانعة ومرّسته بالتجربة والاختفاق على الصبر في مرافقة العطاء بعد أن وثق من عجز
وسائله الشخصية عن بلوغ ما يرمي اليه من المراتب العالية والغنى الكثير ؛ لذلك نراه
يدافع عن نفسه في مرافقة ذوي السلطان بمثل قوله في سينيته في ابن زريق الطرسوسي :

خير الطيور على القصور وشرها يأوي الخراب ويسكن الناووسا »

او في ميميته في مخاطبة الشيب المبكر الى لته :

لم الليالي التي اخنت على جدتي برقة الحال واعذرني ولا تلم»

رافق المتني سيف الدولة زهاء تسع سنوات فكان، على قربه منه او بعاده عنه، بعد ان غرق في نعمه، منجذباً الى مدحه لا ينفك يذكره في شعره؛ اما مادحاً مباشرة فعله على القرب دائماً، واما تلميحاً او غير مباشرة فعله على البعد في مصر وغيرهما من البلاد؛ فيترأى لنا من هذا المدح ان علاقة الشاعر باميده لم تعد اتصالاً عادياً يغلب عليه القصور فعلاوة على صلات الشعر والمدح قام بين الرجلين تبادل الحب والتقدير .

ولمتني في سيف الدولة بضع وثمانون قصيدة لو جمعت وحدها لكانت ديوان شعر وكل واحدة منها تاريخ وصفي لموقف من مواقف الامير الحمداني المشهورة او يوم من ايامه الغريزة . وقد غني بامر هذه القصائد التاريخية عناية مفصلة الكلام المستشرق بلاشير منوها بقدرها .

وابو الطيب شاهد عيان في كثير من ايام جهاد ممدوحه العربي الكبير فهو شاعر مدح يعرض علينا الادب الواقعي لا الخيالي في وصف المعارك وتكوين بطولة سيف الدولة مجسمة في الصور القلمية ، وللقيام بثل هذا الوصف ، ولكن بصورة صحفية قلما ترتبط وثيقاً بالفن الادبي الدراسي ، خلقت وظيفة المراقبين الصحفيين العسكريين في هذه الايام . وقد تكون قصيدته « على قدر اهل العزم تأتي العزائم »، فضلى قصائده التي وصف فيها سيف الدولة قائداً محارباً وتكفي الاشارة فيها الى قوله :

« هل الحدث الحمراء تعرف لونها	وتعرف اي الساقين الغنائم
ستقها الغمام الغر قبل نزوله	فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى والقنا يقرع القنا	وموج المنايا حولها يتلاطم

....

اتوك يجرون الحديد كأنما	سعوا يجياد ما لهن قوائم
فله وقت ذوب الغش ناره	فلم يبق الا صارم او ضبارم

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

.....

الايمى السيف الذي ليس مغمداً ولا فيه مراتب ولا منه عاصم
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلی وراجيك والاسلام انك سالم
ولم لا يقي الرحمن خديك ما وقى وتقليقه هام العلي بك دائم .

أعادت الى ذاكرتي هذه الابيات القول المأثور للدكتور طه حسين في المتنبي واميره :
« ما نفقده من حرية المتنبي في فنه تعوضه علينا عبودية المتنبي لسيف الدولة ان صح
هذا التعبير » .

وكأنى بالدكتور شاء ان يقسو بالشاعر وينصفه في آن واحد فخط له فنه بالعبودية
واعترف له بالفن تحت اسم ذليل ؛ وهذا شأن الدكتور وغيره ممن شدوا على المتنبي
اذ نراهم ، رغم شديهم عليه ، ينتزع منهم الاعتراف بالفن والشاعرية كما كان ينتزع
مقامه عند العظماء ، ولا سيما عند سيف الدولة ، عنوة على كيد الحساد والاعداء والناقدين .
وهنا استعين برأي آخر للدكتور ثم اشير الى وقوعه في تناقض آراء او شبه تناقض
قال الدكتور : « سيف الدولة والمتنبي اثنان فرض كل منهما نفسه على عصره هذا
بشعره وذاك بسيفه » وقال في مكان آخر من مؤلفه ، « مع المتنبي » صفحة ٥٣٩ :
« الفرق بين ابي العلاء والمعري والمتنبي ، هو الفرق بين الفيلسوف والرجل العادي »
« وان الناس ظنوا المتنبي فيلسوفاً وهو ليس من الفلسفة في شيء » ، والدكتور نفسه
يقول في سابق رأي له ، قال ص : ٣٨٦ « ان المتنبي اثر في التشاؤم العلائقي وما نشأ عنه
من فلسفة تأثيراً عميقاً بقوله :

« يدفن بعضنا بعضاً وبشي واخرنا على هام الالاي
وكم عين مقبلة النواحي كحيل بالجنادل والرمال »
ويقول الدكتور عن هذين البيتين :
« اذما تأملت الزمان واهله تيقنت ان الموت ضرب من القتل

وما الدهر اهل ان تؤمل عنده حياة وان يُشتاق فيه الى النسل؟
وقال صفحة ٣٨٨؛ «مع المتنبي» «قد وثب فيها الى معنى فلسفي رائع فتح
لاي العلاء باباً من الشعر جاء فيه بالاعاجيب» .

وفي صفحة ٣٩١ يقول «لا ندع هذه القصيدة دون ان نرى الابيات التي تصور
علم المتنبي بطبائع الناس وحرصهم على الحياة وتفتح لاي العلاء باباً من الفلسفة والتفكير»
وهذه الابيات التي تملأ الصفحة المذكورة منها :

آلة العيش قوة وشباب فاذهما ولياً عن المروءى
ابداً تسترد ما تهب الدنيا فيا ليت جودها كان نجلاً
ويقول في صفحة ٣٩٧ «ثم ينتهي المتنبي بهذه القصيدة الى فلسفة مظلمة حزينة
اقل ما يقال فيها انها تصور شكه في خلود النفس وانحرافه بهذا الشك عن طريق
المسلمين ، واحساسه التعب من هذا الشك والارتياح وتفتح باباً اخر لشعر ابي العلاء .
ويقول في ص ٤٠٧ :

فذي الدار اخون من مومس واخذع من كفة الحابل
تفاني الرجال على حبها وما يحصلون على طائل
«وفي هذين البيتين بذرة من بذور الفلسفة العلائية . وهذه القصيدة عندي
من اجود شعر المتنبي وهي من القصائد النادرة التي تحلو فيها روح الشاعر ويخف ظله
على القارئ والسامعين . وما ارتاب في انها ضمنت وحدها له حب سيف الدولة لانه
وجد فيها جمال الفن ، وقوة الوصف ، وذكاء القلب ، واللباقة السياسية التي تمكنه في
ان يغيظ الخصوم دون ان يضطر الى الخرج»

ويقول في ص ٦٠٥ في صدد الكلام على ابيات من ميمية الشاعر في وصف
الحمى بمصر : «والمتنبي في هذه الابيات يبلغ الفلسفة العليا ...
فكيف يكون ابو الطيب فاتحاً لاي العلاء كل هذه الابواب والنوافذ الفلسفية ،
ودافعاً له البذور الفلسفية الكثيرة ، ومنتهاً الى فلسفة عليا ، والى فلسفة مظلمة حزينة

اقل ما يقال فيها انها تصور شكه في خلود النفس و و . . . « ثم » لا يكون من الفلسفة في شي ١٩ . . .

وجار الدكتور طه حسين بك على ابي الطيب ايضاً في « مرافقته » له حين قال عنه :
« ان المتنبي لم يصف احداً كما وصف نفسه حين قال :

واذا ما خلا الجبان بارض طلب الطعن وحده والتزالا »
وهو الذي يقول في ص ٥٦٦ من كتابه الأنف الذكر « مع المتنبي »

« وكان الشاعر قد ضاق بصر بهذه النعمة الهائلة وهذا الامن في مصر ، وشاقه صليل السيوف وصهيل الجياد . ولكنه لم يستطع ان يجهر بما يجد من ذلك فاتخذ الاعرابيات كناية عنه ورمزاً له .
وفي ص ٥٦٩ :

ليت الحوادث باعتني الذي اخذت في مجلتي الذي اعطت وتجريبي »
فما الحداثة من حلم بانعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب »

« فهذا الكلام من اروع الشعر واجمله . . . فهو يؤثر الصراحة على النفاق ، وهو يؤثر الصدق على الكذب ، وهو يؤثر ان يكون شجاعاً تؤذيه الشجاعة وتعينه على ان يكون مغامراً يغر نفسه بالامال والاوهام »
وفي ص ٥٧٣ :

« يدبر الملك من مصر الى عدن الى العراق فارض الشام فالنوب
اذا انتهت الريح النكب من بلد فاستهب بها الا بتوتيب
ولا تجاوزها شمس اذا شرقت الا ومنه لها اذن بتغريب »

عن هذه الابيات يقول الدكتور : « وما اظن ان احداً يقدر ان المتنبي كان يعبث بهذا المدح وانما لهجة الشاعر هنا صادقة صريحة ، تدل على ان اعجابه بهذا الامير الذي سمته به هتمته وحدها من اسوأ الحالات الى تدبير هذا الملك الواسع العريض »

وكل امرئ يولي الجميل محب وكل مكان ينبت الغر طيب

عن هذا البيت في الصفحة ٥٨٠ يقول الدكتور : « في هذا البيت نفس ابي الطيب كلها فهو رجل لا يحب الا نفسه وهو سعيد حيث وجد من الناس الجميل ، وهو راض حيث وجد المجد والعزة ، فاما الوطن والاهل والاصدقاء «فتأتي بعد ذلك ولعلها لاتأتي : وقال عن المتنبي « الجبان ١ » في ص ٥٩٧ : كان طائراً تعود الهواء الطلق والفضاء العريض ، يرتفع في السماء ما اتاحت له قوته العنيفة ان يرتفع ، فاذا ما اراد الراحة لم يقع الاعلى الشواهد من قمم الجبال ، فاذا هو الان سجين في قفص ضيق ، لعله من الذهب المرصع بالوان الجوهو ، ولكنه قفص على كل حال فكان جواداً مرحاً فرحاً حياته كلها في العدو والغزو ؛ ولذته كلها في المرح والنشاط ، لا يطحن الا اذا مضى امامه اليد والمهامه مستمتعاً بمرح النهار وبرد الليل ، او اقتحم الصعاب والعقاب الى العدو ثملاً بنشوة الظفر او ألم الهزيمة . »

وقال في الصفحتين (٣١٩ - ٣٢٠) « وقد امتاز جماعة من الشعراء في هذا الوصف ويكفي ان نذكر ما قاله ابو تمام وما قاله البحتري ولكن ابا تمام والبحتري وغيرهما من الشعراء الذين سبقوا المتنبي لم يفرغوا لهذا الفن كما فرغ له ولم يقفوا عليه اكثر جهدهم كما وقف عليه اكثر جهده . ثم هم لم يشتركوا في الجهاد كما اشترك فيه المتنبي ولم يشهدوا مواقعه كما شهدها المتنبي ، ولم ينعموا كما تنعم المتنبي ، ولم يشقوا كما شقي المتنبي بما كانت هذه المواقع تعقب من انتصار او اندحار . »

وفي ص ٥٥٤ يقول الدكتور : « لم يهمل المتنبي في مصر إلا فناً واحداً هو خير ما احسن من فنون الشعر وهو تصوير الجهاد بين المسلمين والروم »

وبعد هذا كله فالمتنبي « متنبى الدكتور نفسه » جبان ! ! ! . . .

اما قول الدكتور ايضاً في ص ٥٤٠ من « مع المتنبي » « فلنلاحظ انه لم يصف احداً كما وصف نفسه حين قال :

« من يهن يسهل الهوان عليه ما لجريح يمت ايلام »
فهذا قول جائر ايضاً لان الدكتور نفسه في كامل جزئي كتابه المتقدم الذكر

يظهر لنا ان هذا الشاعر مصانع طموح يهوي به الطموح مرّات ويعاوب به مرة ولكن ليس الى المرتبة التي يريدّها لنفسه . وان كان قد جاء مصرّاً فلا ارى ان مجيئه اليها صغيراً بالقدر الذي رآه له الدكتور اذ يقول : « ماتت نفس المتنبي او كادت تموت » ص ٥٤١ ؛ فاما ان يكون المتنبي شاعراً فنأنا غناء كما نعرفه ويعرفه الدكتور فلا تموت نفس اتحدت بهذه الاقانيم الثلاثة ؛ الشعر والفن والغناء ، وإما ان يكون المتنبي متشاعراً محاولاً بلوغ الفن او بكلمة واحدة ناظراً فعندئذ نسلم بموت نفسه او يوشك موتها وكيف يريد الدكتور ان نوفق له بين قوله في : « من يهن يسهل الهوان عليه » وقوله عن المتنبي الشاعر ص ٥٥٠ : « وانما الامر الخطير حقاً عند المتنبي شيان : نفسه ليعبدها ، والناس ليعبضهم اشدّ البغض »

وقول الدكتور ص ٥٧٠ وهو مسك الختام : « كل هذه الفلسفة وكل هذا الغناء . إنما يثير الشاعرية به الى هذا الحزن الغامض الذي يلا نفسه »
وكل هذا الاخذ والرد فيما قدمنا ، من الكلام على حكمة المتنبي وشجاعته وضخامة نفسه يُعيننا على ان نقدم شاعر بلاط حلب شخصية متفردة بجلال الشعر والتفنن في اغراضه وتنويع اوصافه الملوكية ، تفرض نفسها ، ليس على عصرها فحسب بل على ألف سنة مضت على ذبوع شعرها ، وهو ما يزال حديث القوة عالي الفن باهر الرّواء . وكان صاحبها كان مدرّكاً الى اي حد سيملك هذا الشعر اعجاب الناس حين قال :

« وما الدهر إلا من رواة قصائدي اذا اقلت شعراً اصبح الدهر منشداً »

وسيف الدولة يستحق ان يكون مذباعاً لفضله لسان كلسان ابي الطيب فبلاط حلب في حقيقته امنع جانباً وانبل سيرة من مقر الخلافة في بغداد والاسلام كان بحاجة الى حكومة عربية صرفة تنبذ الشعوبية البغيضة التي حضنتها بغداد وانفقت على شعرائها وادبائها وكثيراً ما اجازتهم ؛ فوجد هذا الشاعر في المتنبي الذي قال فيه ابن الاثير : « اذا خاض في وصف معركة كان لسانه امضى من نصالها واشجع من ابطالها وقامت

أقواله للمسامح مقام أفعالها حتى يُظنَّ أنَّ الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلوا «
ومن طالب المتنبي بصدق الحوادث كؤرخ غير متحيز فقد طالب بما هو فوق
الممكن ، إذ كان على الشاعر أن يستلَّ من الهزيمة انتصاراً لا ميره فيتغزى هذا ويرضى
بمثل هذا الشعر :

« وهل يضرك وقت كنت فارسه وكان غيرك فيه العاجز الضرع
من كان فوق محل الشمس موضعه فليس يرفعه شيء ولا يضع »
ويدخل على نفس الممدوح في قرارها فيضطلع بامر دولته والقضية العربية آنذاك
فتجيه قصيدته حتى في التهنية بالظفر مستهله بالكآبة والمرارة الدفينة كما يبدو في قوله :
« ليالي بعد الظاعنين شكول طوال ولسل العاشقين طويل
يبن لي البدر الذي لا أريده ويخفين بدراناً ما إليه سبيل »
وكثيراً ما عرض بخليفة بغداد انتصاراً للمدوحه ، صاحب البلاط الحمداني ،
واعلاناً لفضل دولته على العرب كقوله :

« ما الذي عنده تدار المنايا كالذي عنده تدار الشمول »
وكم أعانه اسم هذا الأمير على ادخاله في باب التورية في كثير من المدائح كقوله :
« لامر أعدته الخلافة للعدى وسمته دون العالم الصارم العضبا »
او كقوله :

« من للسيوف بان يكون سمها في اصله وفرنده ووفائه
الشمس من حساده والنصر من قرنائه والسيف من اعمائه
ابن الثلاثة من ثلاث خلاله من حسنه وابائه ومضائه »
او كقوله :

« دواليك يا سيفها دولة وامرك يا خير من يأمر »
وهكذا كان المتنبي ملائماً لعصره ؛ فالعصر زاخر بالاضطرابات والحروب وصدر
المتنبي جياش بالكبر والطموح فانفسح المجال للشخصية الفردية ووصل الشاعر ، الذي

اخفق في ادعاه النبوة مرة والامامة اخرى وفي احراز الولاية ايضاً ، الى اماراة الشعر
في بلاط حوى صفوة من شعراء ذلك العهد كابي فراس ، والسري الوفاء ، والنامي ،
والبيغاء ، والسلامي وغيرهم من العلماء كالغارابي والمغوين كابن خالويه .

وكان اختصاص المتنبي ببلاط سيف الدولة ثابت الصلة مستنداً الى ركنين من
السياسة والاقتصاد جمع بينهما الذوق الادبي والود الصادق ، الذي لم تغيره زعازع
الحوادث الا في الظاهر ، وعززتهما التضحية المتبادلة ؛ فكما ان الامير ضحى
بمكانة مربية ، ابن خالويه النحوي المشهور ، وقدر ابن عمه الشاعر ابي فراس ، واختص
ابا الطيب به ؛ هكذا كان يفعل الشاعر فيغلف ترعاته الخاصة بما يرضي اميره كما فعل
عائداً من قمع فتن القرامطة ، او كما ضبط نفسه لما جرح في مجلس الامير وهو ينشده
قصيدة المشهورة « واحرق قلباه » فارتمل ابلغ ما يقال من الشعر في التعبير عن التضحية
في سبيل المحبوب ١ .

« ان كان سرکم ما قال حاسدنا فما لجرح اذا ارضاكم الم »

وما اجمل ما قال في شعره واميره وحساده بعد ذبوع قصيدته : « اجاب دمعى وما
الداعي سوى طلل » اذ قال :

« ان هذا الشعر في الشعر ملك سار فهو الشمس والدنيا فلك

عدل الرحمن فيه بيننا فقضى باللفظ لي والحمد لك

فاذا مرّ باذني حاسد صار ممن كان حياً فهلك »

ولقد شاء الدكتور عبد الوهاب عزّام في كتابه « ذكرى ابي الطيب » ان يجعل
المتنبي شاعراً قصصياً كشاعر « الايالة » فانكر الدكتور طه حسين ان يكون
المتنبي شياً من ذلك فيقول في كتابه « مع المتنبي » :

« على ان ابا الطيب لم يتوفق الى قول الشعر القصصي من نحو ما جاء في الايالة
او تفضيله عليه كما شهد له بذلك ، وانما هو شعر متنوع كحياة الامير » ؛ ويشير الى
ان الشاهد هو الدكتور عزّام .

ولا اريد هنا ان احشر المامي بعلم الدكتورين ، ولكنني اريد ان اتوكلأ عليه لارقي الى هذا الامير ، سيف الدولة ، فاقمته على رأي احد الدكتورين ، غزام ، بطلاً اسطورياً نظم فيه ابو الطيب نيفاً وثمانين قصيدة خالدة ؛ واره على رأي الدكتور الآخر ، طه حسين ، اميراً متنوع الحياة تنوعاً يوحى الى شاعرة بالمعاني الشعرية الفخمة او على الاقل ، يعرضها على لباقة وعبقريته فتخرج نوعاً خاصاً من المدح التبس على الدكتورين امر الاتفاق على تصنيفه ؛ فتجاذبا الشاعر واميره بالرأي والدرس .

وما اراه « بالمامي » هو ان المتنبي خرج في شعره باميره من دائرة الشعر الغنائي الى دائرة الشعر القصصي ؛ ولكنه لم يتوفق اليه في مراسه المنبسط المدى وسياقه المتواصل في الوصف الخارق ؛ ولكنه توفق الى الوصف الخارق في سياق متقطع وفي مدى يتسع بقدر ما تتسع واقعة سيف الدولة . ومن تدبر قصيدتيه : « أراع كذا كل الانام همام » و « على قدر اهل العزم تأتي الغزائم » مثلاً تبين له الوصف الخارق في خيال الملاحم ولكنه مقطع السياق فلم يرض الدكتور طه حسين ان يحسب في الشعر القصصي .

ولم نتعرض لبحث مدائح المتنبي في غير سيف الدولة لاننا اعترمنا البحث في الاختصاص بالمدح ؛ وما ارى المتنبي غير مختص بمدح سيف الدولة وان مدح سواء قدحه غير صادق العاطفة ، سهل المدم غالباً ؛ ولا سيما في صاحب مصر ، كافور .

وخلاصة القول ان قصائد المتنبي في سيف الدولة صوت مبوق متحمس يهز قلوب المسلمين قبل آذانهم بوصف جهاد امير يدفع الروم عن شواطئ سوريا الشمالية وبعض مدنها ويذود عن حياض الاسلام .

ونحتم الكلام مرددين قوله معجباً باميره معرضاً ببلاط بغداد :
« ما الذي عنده تدار المنايا كالذي عنده تدار الشمول » ،

وبقول ابي القاسم الطوسي في رثاء المتني :

« كان من نفسه الكبيرة في جيش ومن كبرياه في سلطان
ما رأى الناس ثاني المتني اي ثان يوي لبكر الزمان
هو في شعره نبي ولكن ظهرت معجزاته في المعاني »
وهذا « السلطان وذاك » الجيش « ضمنا له المقام الاول في بلاط بني حمدان
و « معجزات معانيه » تضمن له مقام « نسر الشعر العربي » .

شوقي في بوط مصر

شوقي الرجل :

هو احمد على شوقي ولد بالقاهرة عام ١٨٦٨ م . في بيت كريم المنشأ وحيداً منعماً
نشأ ربياً لنعمة الخديوي اسماعيل وفي ذكرى هذا المنشأ قال في زمن جفوة كانت بينه
وبين القصر في عهد خلف اسماعيل :

«أأخون اسماعيل في ابنائه ولقد ولدت بباب اسماعيلاً»

وقد جاء فيما قاله عن نسبه : انا عربي تركي يوناني جركسي مجدي لاي اصول
اربعة مجتمعة في فرع ، اما ولادتي فكانت في مصر بالقاهرة .

تدرّج في اقام ثقافته منذ كان يافعاً ، في مدرسة تمهيدية الى المبتديان فالى التجهيز
ونال من وزارة المعارف المصرية الشهادة العليا في الترجمة ، وارسله الخديوي توفيق باشا
لدرس الآداب والحقوق في فرنسا فكتب فيها بأمر الخديوي نفسه ؛ اربع سنوات
اكسبته علماً واختباراً بالقدر الذي تناوله جهده طالباً لا عالماً .

انتدب وهو في الثامنة والعشرين ممثلاً للحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين في
جنيف ، ورأى فيه الخديوي عباس باشا الكفاءة العالية فاجبه وولاه رئاسة القلم الفرنجي
في الديوان الحكومي المصري .

واضطّر شوقي لترك مصر في مهب الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ فغادرها الى
الاندلس حيث تحشد ذكريات اجداد العرب وآثارهم في القارة الاوروبية واستقريندب
« الزهراء » ويعذي خياله بجمال اسبانيا حتى انتهت الحرب فرجع الى مصر يبثها شوق
الابن البدر .

واستمر يتحف العربية بروائع الشعر وبعض النثر الى ان جان حينه سنة ١٩٣٢ م
وقد بلغ الرابعة والستين فمات شيخاً في الادب والسياسة .

شخصيته :

قلنا ان المزاج الارستقراطي هو شرط لازم في توثق علاقة رجل الحاشية بأميره
وهكذا كان في شخصية احمد شوقي ، الوثائق من شاعريته واللبق في افقه ، توثب الى
المراتب وعشق حياة القصور ومظاهر الجلال يتجلى لنا ذلك في مثل قوله :
« شاعر الامير وما بالقليل ذا اللقب »

اجل انها شخصية ضخمة « ماوكية » بلغت بصاحبها او بلغ هو بها اقصى غاية
للعجب بالذات والاعتداد بالشاعرية والنبوغ فهو يلوح للقراء عامة والشعراء خاصة بهذه
الشخصية الضخمة حتى في مواقف الرثاء فاسمعه يقول في رثاء امه :

« متلك مناجيب العلى وغيتها فلم تلحقي بنتاً ولم تسبقي اما
وكنت اذا هذي السماء تخايلت تواضعت لكن بعدما فتها نجما
اتيت به لم ينظم الشعر مثله وجئت لاخلق الكرام به نظما
ولو نهضت عنه السماء ومخضت به الارض كان المنزل والتبر والكرما »
ولا اظنه الا تحدى بهذا زميله الشاعر « الاميري الحمداني » حيث قال :
« ولولم تكوني بنت اكرم والد لكان اباك الفضم كونك لي اما »
كما انه حاول ان يتحداه بقوله :

« رواة قصائدي فاعجب لشعر بكل محلة يرويه خلق » ،
والسابق المتني قال :

« وما الدهر الا من رواة قصائدي اذا قلت شعراً اصبح الدهر منشداً كما انه تحدى مقلداً ، او عارض إتباعياً ، كثيراً من أعلام الشعر العربي في افضل مطولاتهم ؛ كالبوصيري في « بردته » والبحري في « سينيته » والانديلي في « رثاء الاندلس » وغير ذلك مما يعرض علينا بجلاء احمد شوقي معتدا بعبقريته مباهاً « بامارته » .

بيد ان « اصوله الاربعة المجتمعة في فرع واحد » ، على حد قوله عن نسبه ، أفسدت علينا الكشف الكامل عن مبطنات تلك الشخصية المتوارية في خليط من المنازع الفرعونية والاسلامية والتركية والشرقية وجعلتنا لا نأمن اللبس في البحث عن عصبه الرئيسي . وان كان لا بد من الدخول الى قرارة شخصيته على ضوء الدراسة نرجح انه كان فرعونياً قبل كل شيء . آخر بحكم تأثير المنشأ والبيئة وفضل البلاط ، ثم تركياً ، ثم اسلامياً بحكم المتجذر والدين ، ثم شرقياً بضرورة الجامعة العربية المنشودة .

فهو اذن اكثر وفاء لنعمته واميره منه لاسلامه ودينه على الرغم مما يبدو لنا ، خلال كثير من شعره ، من الايمان الصادق والشعور الديني الفياض الذي لا يبخل على المسيحية ببعض التذليل بعجائب « عيسى » وفضائله . وربما كان هذا الوفاء الجلم لبلاط مصر درساً لفته اياه تجارب الايام وخلاصات العلم وبلاء الاسفار على رأي بعض الادباء ؛ ولكننا نرى أن المصانعة في حب المراتب العالية وبلوغ نعمة الثروة هي التي جمعت له ذلك الهرّ ببلاط أولياء نعمته فوشّت شعره بوشى الحكمة الهراق ؛ ولذا زى الحكمة تطغى على سائر شعره في شتى المواضيع ، ولكنها حكمة مألوقة قل ان تنزل الى غور ، او حكمة مبتذلة « ملوكة » كتسائله في اكثر مرثيه عما وراء القبر ، او حكمة مكررة ؛ منقاد طوعاً مرة وكرها اخرى ، كعرضه بنيان الامم والممالك قائماً على اخلاقها ؛ وقد أسرف في التوكؤ على البنيان الاخلاقي فرآه ملاكاً لمالك لحيوان والحشرات كالنحل مثلاً .

شاعريته:

وسواء أوافقنا الجائزين على شوقي « الامير » ام ناقضناهم ، جزئياً ام كلياً ، فلا بد لنا من الاعتراف بشاعريته فذة جليلة الى حد بعيد ؛ وتلك الفذاذة وهذا الجلد باديان في كل ما خلف من منظوم كله فخم الديباجة ماويكي الرواء يلوّح بالنفس الطويل والصبر العنيد . واشهر ما يفيد هذه الشاعرية لتظهر اكثر تأسكاً وعمقاً هو ان شوقي اقل علماً بالنسبة الى معارف عصره من فحول الشعر فيما سلف بالنسبة الى عصورهم ؛ وهذه قصيدته في تقيظ احمد لطفي السيد مترجم « اخلاق ارسطو » تشهد عليه ببعض ذلك ؛ ولئن شد عليه الدكتور طه حسين في هذا الصدد فقال : « قال شوقي شعراً في افلاطون وهو يقصد ارسطو » فالشد في محله اذ ان ظروف الاقتباس والتوليد التي سنحت لشوقي ندر ان سنحت لغيره من السابقين والمعاصرين .

ومن رأى ان يعذر شوقي في اهماله الاطلاع على ما يقوم من فوارق فلسفية بين مذهبي ارسطو وافلاطون وجب عليه الا يقيم له عذراً اما رأى تلك الشاعرية الجليلة ، كما قدمنا ، لا يوافقها غير جلد عادي في ابداع الجديد من الشعر مهابة منه للقديم وتخاذلاً في مجابهته الخروج عليه وهو المطوف في قواعد الابداع الشعري الجديد من مدن اوروبة وغيرها . ولا ارى اختصاصه بالمدح واكتثاره منه إبان نضجه الفكري ، وهو الذي كان يكرهه فتياً بشهادة احمد الفتى على نفسه بذلك في مقدمة ديوانه القديم الا صريح اعتراف بتراجعه ووهنه في « معركة الفتح الشعري الحديث »

الا توشك ان تلس هذه الشاعرية الجبارة كالنسر تحول حسوناً ناعماً مغرداً يطرب مولاه بمثل قوله :

« اليس من الغر المنعم ان ترى امير القوافي في ركابك جاثياً ؟ »
أو قوله :

« آخون اسماعيل في ابنائه ولقد ولدت بيباب اسماعيل ؟ »

فهذا الجائى في «ركاب الامير» و«المولود بباب اسماعيل» لم يصلح كثيراً لان يتحدى شكسبير بدلا من ان يقرظه وهو الموهوب فناً وله من امكانيات العصر ما يعنيه على عرض قافلة من قوافل الدهور كما فعل شكسبير ؛ ولكن قاتل الله مظاهر العظمة البراقة كم وفقت حاجزاً منيعاً في وجوه الكثيرين من اصحاب المواهب فغمرتهم بزائف مظاهرها وغلقتهم بوهوم خلودها .

وقد جعلت شاعرية شوقي مثلاً الاعلى سابقاً لعصرها فخسرت كثيراً من قيمتها الكبيرة وغناها الطائل وكل ذلك ناتج عن عوامل التوكؤ على القديم والتوكل على الموهبة ، فجاءت قصائده بالحكم الشائعة البديهة ولم تنزل الى غور من اغوار الحياة كما سلف الكلام ، وان تولت فنادر نزولها وليس الى بعد .

ويا ليته عمل اللادب بالرأى الذي رآه للسياسة في مثل قوله مخاطباً شباب مصر :

« فابنوا على اسس الزمان وروحه ركن الحضارة باذخاً وجديداً »

« الهدم اجمل من بناية مصلح يبني على الاسس العتاق جديداً »

او في مثل قصيدته « الرحالة » .

« وكل بنيان قوم لا يقوم على دعائم العصر من ركنيه ينصدع »

شريف مكة حر في ممالكه فهل ترى القوم بالحرية انتفعوا ؟

فهو كان يشعر كل الشعور بالجددة الدولية وفقاً لحياة العصر القومية ؛ ولكنه رأى مثل هذه الجدة ضرورة للادب وهو شاب ثم تحول عنها كهلاً وشيخاً مشدوداً الى روابط من عصور خلت قلماً اتفقت وهذا « الزمان وروحه » .

اختصاص شوقي بالبلاط المصري :

لا حاجة بنا الى درس الاسباب والظروف التي أخضت شوقي بالبلاط الحديوي وهو نفسه يعلن لنا انه : « ولد بباب اسماعيل » وغمر بالعناية الملوكية فكأن غريد البيت المالك ولسان حال سياستهم شعراً . وليس من صعوبة تعثر الباحث عن صلات شعر شوقي ببلاط عابدين فهو مقلد رب البلاط المصري في المحافظة على ما

تحافظ عليه حكومته وهي اهداف ثلاثة :

- ١ - سلامة مصر والاشادة بذكريات الفراعنة .
- ٢ - مجاملة الباب العالي والتدين بالاسلام والدفاع عن حياضه واحترام كل ما يستند اليه ديناً ودنيا .
- ٣ - حسن العلاقات بالحكومة والبيئات العربية ادم واللسان والبلاد وبالاوساط الشرقية جغرافياً

ومن انعم النظر في قصائد شوقي السياسية التاريخية الكثيرة ادرك بمقياس المادة ان شاعريته ، في مواقف السياسة والتاريخ ، تحدث في شعره تمهداً يدور حول نقطة وسط كالانفساح الذي يحدثه حجر تلقيه في الماء ؛ وفي دائرة هذا الانفساح نلمس اهداف الشاعر الثلاثة التي سبقت الاشارة اليها محلاة بذكريات ومآثر لامراء البيت المالك لا يستطيع المؤرخ اثباتها او هي تعرب عن باله ؛ وان عرض لها علم التاريخ فهي طبعاً ، ادنى منها قيمة في معرض قصيد شوقي . فكأنه كان داعية شعر الى وفاق في مصر وبوق تناد في البلاد العربية والتركية في عهد السلطنة العثمانية .

وكان سياسة خاصة حرص عليها حتمه بنعمة القصر لرب السرير ودفعت عنه اذى الناس فاصبح مؤثلاً بهذه الحياة موقوفاً شعره عليها .

عصب فرعون :

ان البلاط المصري ، الذي كثيراً ما كان يُعرض عن حافظ ابراهيم وامثاله من كبار الشعراء المصريين ليخص بنعمته احمد شوقي ، كان يلمس في شاعره المفضل الذود الحق والاخلاص العظيم ؛ فلم توقف الآثار المصرية الناطقة بجلال تاريخ مصر من عوامل الفخر في نفوس سائر شعراء مصر الحديثة ما ايقظته في نفس شوقي ؛ وفي المقاطع التالية مصداق لما نرى :

من مناجاة ابي الهول :

ابا الهول انت نديم الزمان نجي الاوان عمير العصر

تطل على عالم يستهل وتوفي على عالم 'يحتضر

.....

الم تبل فرعون في عزه الى الشمس معتزياً والقمر
يؤسس في الارض للغابرين ويفرس للآخرين الشمر

.....

فهل من يبلغ عنا الاصول بان الفروع اقتدت بالسير
وانا خطبنا حسان العلى وسقنا لها الغالي المدخر
ومن وطنية له نظمها في بلاد الاندلس :

وطني ان شغلت بالحد عنه نازعتني اليه في الحد نفسي
ومن اخت « يوشع » :

أم المالكين بني امون ليهنك انهم تزعوا امونا
فكانوا الشمس حين الارض ليل وحين الناس جد مضلينا
مشت بمنارهم في الارض روما ومن انوارهم قبست أثينا

ومن « انس الوجود » :

وانا المحتفي بتاريخ مصر من يصن مجد قومه صان عرضا
ومن قصيدته في وليمة اعداها للكاتب الانكليزي المستر « هول كين »
ان مصرأ رواية الدهر فاقرأ عبدة الدهر في الكتاب العتيق

ومن ياروم ؟ انه شاعر بلاط موهوب استظل عرشاً ترف على جوانبه ذكريات مجد
عظيم قديم تأرجح بين (ممفيس وتيبس) قاعدتي مصر الفرعونية ، وانغمض الموت عينيه
وهو يشهد معول العلم الاثري الحديث ينشر ، بين آونة واخرى ، من مومياء تلك
العظمة ما استدعى اعجاب السلطان والفن والعلم في القرن العشرين .

ولم لا يسمى « ابا الهول » ، المنحوت الجبار القائم عند قاعدة الهرمين العظيمين
« نديم الزمان يطل على عالم « يستهل ويوفي على عالم 'يحتضر ؟ » ولم لا يراه بعين المصري

والشاعر والمؤرخ ينتسب الى الشمس والقمر في سناثه وخاوده ؟ ومثل هذه الآثار حوافر الاصول في نفوس الفروع .

وكيف نلومه ان هو قدم فخره بمصر واعتداده بغابر سلطائها على كل مقدم آخر وهو لا يريد « ان يشتغل بالخلود عن جبه مصر » وهو « المحتفى بتاريخ مصر يصون عرضاً ان هو صان هذا المجد الفرعوني » ، وهو المستقرى . ضيفه ، الكاتب الانكليزي ، عبدة الدهر في كتابه العتيق ، مصر ؟

هذه اشارات جليلة الى فرعونية المتأصلة في ذاته ؛ ولكن شوقي لم يشأ ، او لم يستطع ، ان يبقى محلياً ضيقاً لا يتعدى جو مصر ، فتعداه ، ولكن فيما يتفق ومصلحة البلاط الواقف شاعريته على خدمته .

عصب الترك والاسلام :

لو لم يكن شوقي مصري المولد والمنشأ وربيب نعمة الحديوي اسماعيل يربطه الوفاء ببلاط مصر ويغريه بالتغني باجماد الفراغة لكان شاعر الترك والاسلام بحكم العصبيتين المتحدة والاسلامية .

ولئن يكن عصب فرعون بادياً . اصدق واعق لعين الدارس فعصب الترك والاسلام اعم واوسع .

وفي قوله في مدح السلطان عبد الحميد :

أناول من شعر الخلافة ربها واكسو القوافي ما يدوم فيقشب
وهل انت الا الشمس في كل أمة فكل لسان في مديحك طيب
واني لطير النيل لا طير غيره وما النيل الا من رياضك يحسب
ما يوشك ان يحملنا على الاعتقاد بان تركيبه طاغية على غيرها من التزعات لولا استدراكنا الحكم بطغيان المجاملة لاصحاب الاستانة ، فالشاعر « طير النيل لا طير غيره » ولكنه « هو والنيل الذي يحبه في كنف الباب العالي » ، او بالاحرى « صاحب بلدز » .

وفي قصيدتيه ؛ « صدى الحرب » و « سل يلدزاً » ما يذثر الرماد عن تركية
تجيش في شاعريته متفجرة بفيض من العواطف النازية حساسة مع صاحب التاج العثماني .
وما ان تصل الى قوله :

« لك الربوع التي ريع الحجيح بها أالشريف عليها أم لك العلم ؟ »
حتى تراه رجح ، ولو في غفلة من غفلات اسلاميته العربية ، تركيته ؛ فيهب
بصاحب يلدز ان يضرب على ايدي الشريف واعوانه ويظلل الحجيح بالسيادة التركية
عملياً في قلب الجزيرة وبيتها الحرام .

وعلام لا يصح اتهمه برجحان النزعة التركية على العربية وهو العاشق لمقر السلطنة
« الاستانة » ، فيخاطبها متغزلاً بها قائلاً :

« في كل عام انت نزهة روحه ونعيم مهجته وراحة باله
يفشاك قد حنت اليك مطيه ويؤوب والاشواق مله رحاله »
والهاء راجعة طبعاً الى الشاعر شوقي .

ولولا ظهور المجاملة لصاحب التاج العثماني منبهة هنا وهناك في « تركيات » شوقي
الكثيرات مجاملة جوفاء ، اعني لا تقوم على حقيقة مدح ، لقننا ؛ انه تركي قبل كل
شيء . فاسمعه يقول لمحمد رشاد ، اضعف من عز الاسلام بظله » :

هز اللواء بعزك الاسلام وعنت لقائم سيفك الايام
وانقادت الدنيا اليك فحسبها عذراً قياد اسلست وزمام
ومشى الزمان الى سريرك تائباً خجلاً عليه الذل والارغام
ومحمد رشاد يشتري من المانيا بارجتين والشاعر يستقر الاسلام لاعانة الاسطول
التركي الضعيف .

وقد ازلفت بيانه ايضاً مجاملة الخليفة العثماني عفواً من مسالك البقرية التي يرتادها
اديباً تركياً اسلامياً حين قال :

« وكلفنا » البوسفور « حوض محمد وسط الجفان وهن في اجلاله »

وكان « شاهقة القصور » حياه حجرات « طه » في الجنان وآه » ؛
 وكانت جماجم ضحايا عبد الحميد الطاغية . ما تزال تلتطم بالشاطئ . مع امواج
 البوسفور وجوانب « شاهقة القصور » ترجع انات المظلومين وترخر بذكريات الاحرار
 الشهداء . بشهادة اديب الاحرار ، ولي الدين يكن ، في « الصحائف السود »
 و « التجاريب » .

ولست ادري كيف رأى السلطان ، محمد رشاد ، عديلاً لعمر بن الخطاب رأياً لا
 تحفظ فيه فقال :

« فكأنك الفاروق في كرسيه نعمت شعوب الارض تحت ظلاله »
 والفاروق من المثل العليا في الملوك والحكام قديماً وحديثاً .
 ولم يترك سائحة التاريخ التركي تفوته دون ان يدح « اتاتورك » مصطفى كمال ،
 بمثل قوله :

من فل جيش ومن انقاض مملكة ومن بقية قوم جئت بالعجب
 اخرجت للناس من ذل ومن فشل شعباً وراء العوالي غير منشعب .
 وما كان اكثر لباقة ومرونته حين انكر على « اتاتورك » ممدوحه بالامس ، ان
 يلغي الخلافة ، ان صح التعبير تاريخياً اسلامياً ^(١) ، ويجعل من تركيا ، مملكة السلطان
 المخلوع ومن « مشى الزمان الى سريره ذليلاً مرغماً تائباً » بلاداً اوروبية الشكل ؛
 فخاطبه لائماً معاتباً :

استغفر الاخلاق لست بجاهد من كنت ادفع دونه والأحي
 مالي اطوقه الملام وطالما قلدته المأثور من امداحي
 أقول من احيا الجماعة ملحد واقول من رد الحقوق إباحي ؟

(١) اشارة الى ان بعض المؤرخين ، وبينهم الاتراك كمدحت باشا ، لا يسمون سلاطين
 آل عثمان خلفاء بل يلقبواهم « بحماة الحرمين » او يلقب « امير المؤمنين »

ان ما نعينه هنا بالعصب الاسلامي الادبي هو حسب الاشادة بايجاد ابناء العربية في ظل الحكومة المسلمة ؛ تلك الحكومة التي طلعت شريقتها الرشيدة من صحراء « الجزيرة » وجمعت تحت اكنافها مملكة لا تحسد ، ابان بلوغها الذروة ، بمملكة اخرى في العالم ان عدلا وان سلطاناً ، ان علماً وان سياسة ، وفي ملوكها أمثال عمر بن الخطاب ومعاوية الاول وهارون الرشيد والمأمون ؛ ولا نرى فرداً سياسياً يلفت نظر العالم اجمع اذ يؤسس دولة او يرمم ما تصدع من بناء امة بعد ان عرف تاريخ الاسلام صقر قویش يحمل في صدره كيان دولة وينقل بيديه نواة امة ؛ فينزل بلاداً غير بلاده ويجمع قوماً غير قومه وينشئ في القارة الاوروبية مفخرة عربية دولية باسم الحكم الاسلامي وفي ذكرى العظمة الاموية يقول شوقي في « تحية دمشق » :

بنو امية للأبناء ما فتحوا	والاحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكا سرير الشرق تحتهم	فهل سألت سرير الغرب ما كانوا ؟
عالين كالشمس في اطراف دولتهم	في كل ناحية ملك وسلطان
بالامس قت على « الزهراء » اندبهم	واليوم دمعي على « الفيحاء » هتان

وفي قصيدته « الاندلس الجديدة » و « قم ناد انقرة » وضوح نظمنا على نوره على صحة وجود عصب الاسلام متفشياً في نفس الشاعر ، فاسمعه يقول في رثاء صدع الحكومة المسامة التركية الجنس يوم سقوط ادرنة وسالونيك في ايدي اليونان :

« يا أخت اندلس عليك سلام	هوت الخلافة عنك والاسلام
نزل الهلال عن السماء فليتها	طويت وعم العالمين ظلام
مقدونيا والمسلمون عشيرة	كيف الخوالة فيك والاعمام

(١) اشارة الى قول شوقي لمحمد رشاد :

« ومضى امزان الى سريرك ثائباً
خجلا عليه الذل والارغام »

أتراهم هانوا وكان بعزهم وعلوهم يتخايل الاسلام^(١)
وغير هذا كثير فما يدل ، في مختلف شعره ، على حسن دينه بالاسلام واحترامه
اياه الى درجة بعيدة ، ولكن بلاط مصر كان راضياً عن تدليله بفضل الاسلام وعظمة
تاريخ ممالكه فهو في هذه ساعر البلاط الحديوي بصورة غير مباشرة .

عصب العرب والشرق :

هذا هو العصب الثالث في شعر شوقي السياسي ، المحوم في جو السياسة المصرية ،
ويجب ان نكشف عنه لنتمكن من ان نسلم ، جزئياً ان لم يكن كلياً ، بصحة
قول الشاعر العالم ، مطران ، في مهرجان شوقي :

« أعظم بشوقي ذائداً عن قومه وبلاده في الازمة النكراء »

او نستطيع ان نؤمن بعض الايمان بقول شوقي في المهرجان نفسه :

« كان شعري الغناء في فرح الشر ق وكان البكاء في احزانه »

او نزتاح الى مبايعة حافظ شاعر النيل ، شوقي اذ قال في المقام ذاته :

« امير القوافي قد اتيت مبايعاً وهذي وفود الشرق قد بايعت معي »

شوقي وحافظ ومطران ثلاثة من اركان الفصحى جمعهم مصر حقبة من الزمن
فتعارفوا عن كتب وساروا في طليعة الشعراء الذين ادرکوا ضرورة التحول بالشعر
العربي عن الموضوعات المبتذلة والبيان الجاف والعصبيات السامة ؛ وكانوا ، وهم جيران
في السن ايضاً ، يلمعون على مشيهم ثياب النشاط والفتوة . وانهم وان لاح لنا في
شعرهم تنوع الاغراض واختلاف النزعات وتباين الاجواء الشعرية والتنافس احياناً ،
لم يبخس احد منهم حق اخويه في اعلان حقيقة شعرهما ، ومن الايات الثلاثة المتقدمة
الذكر نشين ان شوقي لم يرفع نفسه الى اسمى من المنزل التي رآها له اخواه .

(١) كان من العدل ان ننسب اليه بعض التعصب الديني لولا ما شاع عنه من حسن تدينه
وما ثبت عند الدراس من صادق احترامه « عيسى »

ولنعمد الآن الى تلمس هذه المئزلة الشعرية التي عرفت لشوقي غير مبالغ فيها .
 لم يكن شوقي يرضى عن شاعريته ذاهبة في المباهاة باجماد مصر وعزة السلطنة
 العثمانية والاسلام كل مذهب ، بل كان يجتهد في ان يجمع الى تلك المباهاة الدعوة الى
 تفاهم البلاد العربية وترباط الاقطار الشرقية مستنداً الى الحكمة القريية المتناول
 متوكلناً على الاخلاق الاجتماعية والآداب القومية ؛ فانظر اليه يغلف الجفوة التركية
 البارزة في صدر « اخت اندلس » بغلاف لبق من التسامح الانساني والاخاء المذهبي
 في مجرى القصيدة اذ يقول مشذباً خروج اليونان على تعاليم عيسى كما تراءى له :
 « عيسى سيبك رحمة ومجبة في العالمين وعصمة وسلام
 ما كنت سفاك الدماء ولا امرأ هان الضعاف عليه والايام
 يا حامل الآلام عن هذا الورى كثرت عليه باسمك الآلام
 انت الذي جعل العباد جميعهم رحماً وباسمك تقطع الارحام
 ويستوحى ، من عل ، الرفق الاسمى لشعره في بأساء الحياة وسرائها لا يستطيع
 استيعاده الا الى تفتت في نفوسهم اجواء من النبوغ المرمم ، نبوغ السلام والتفاهم
 فيقول :

ولد الرفق يوم مولد عيسى والمروءات والندى والحياء
 ولكن الفتح محتاج والحرب غاشمة نكراء وشوقي شاعر رفيق يجتهد في ان
 يضم من جراح العرب وفي ان يلاشي ما اندس في بعض النفوس من الشجناء الاهلية
 وما قام بينهم من حواجز دينية ، في مختلف العصور ، فيسمعهم رأيهم ، في الكنيسة
 تحول مسجداً ، متجمعاً في البيت التالي :
 « كنيسة صارت الى مسجد هدية السيد للسيد »

ورأيه في بناء الدولة العربية على قواعد يجمعها في بيتين وهما :
 « الملك تحت لسان حوله ادب ، وتحت عقل على جنبه عرفان
 الملك ان تتلاقوا في هوى وطن تفرقت فيه اجناس واديان »

وَيَخاطب « الصليب الاحمر » شعار المؤاساة في زعازع الحروب بقوله :
« والمس جراحت البرية شافياً ما كنت الا للمسيح بنانا »

يمثل هذا الشعر المسلم المسيحي يجب ان نلقح ادبنا واجتماعنا لنهي وطننا يقول
شاعره اسائسه في المستقبل قول شوقي ، في سابق الاوان ، للسلطان التركي الذي
خلعت حكومته على دولته لقب « الرجل المريض »^(١)

« يفديك نصرانيه بصليبه والمنتحي لمحمد بهلاله
وفى الدروز على الخزون بشيخه والموسوي على السهول بماله
صدقوا الخليفة طاعة ومحبة وتمسكوا بالطهر من اذياله »

نقف عند هذا الحد من درس اعصاب شوقي الشعرية لنعود الى الكلام عن بروز
الاختصاص ببلاد مصر مقيداً شاعرية حسون قصر «عابدين» وان شئت فقل ؛ «بازيه»

بروز الاختصاص ببلاد مصر على الرغم من تفرع الاعصاب :

قلنا ان عصب فرعون اعرق من سواه في شعر شوقي السياسي او المدحي ، على
الاقل ، وهذه الفرعونية المتأصلة في شعره والنامية معه هي اساس العظمة التي يسند اليها
عزة صاحب الناج المفيء عليه ، من اسرة محمد علي باشا الكبير ، ففي قوله في ابي الهول :

فهل من يبلغ عنا الاصول بان الفروع اقتدت بالسير
وانا خطبنا حسان العلى وسقنا لها العالي المدخر ، «

ربط تاريخي واضح لجلالة العزة الخديوية بعظمة تاريخ الفراعنة .

ومن قوله في تهنئة الخديوي اسماعيل :

« يا اجل الكرام وجهاً وجاهاً وارباً الورى خفياً وجداً »

(١) اشارة الى اللقب الذى الصقه بعض الساسة الاوربيين بالدولة العثمانية في عهد السلطان

وكبير الحياة في العصر والعالي^(١) فما ارى لك ندا
 اين كسرى واين قيصر مما نلت بالمجد بلغت او مجدا
 لبس الشرق من لقائك تاجاً وتلقى اعوام رشك عقدا
 ندرك ان الشاعر يحاول ان يرتفع بممدوحه الى درجة الاكاسرة والقيصرة ؛ ان لم
 يكن بسعة الملك فبمدى ما « بلغه الحديوي مجدا » ويرى في ذلك ما يلبس الشرق
 تاجاً « وفي هذا الشعر لباقة المبالغة التي تشعر دارس هذا المدح ان شوقي ضنين بممدوحه
 المصري أن يلبس غلو أمر دوداً « مفضوحاً » ، شأن « امير الشعراء » في صاحب الاستانة ،
 كما ضن قبله المتنبي بالباس سيف الدولة شيئاً من ذلك ؛ وان حدث ان تجاوز شوقي
 الغلو المقبول ، في مدحه بلاطه واميره ، كخله بالفن الرائع والعاطفة الصادقة والعقل
 المتدبر حتى يتزل من الذوق منزلة لا يتأباه معها كقوله في « اخت يوشع » وقد رفع
 مليكه فوق فرعون ؟

« زمان الفرد يا فرعون ولي ودالت دولة المتجهرينا

فؤاد اجل بالدستور ملكاً واشرف منك بالاسلام ديننا

وكقوله في حب مصر مربع نعمته ، وبلاد مولاه :

وطني ان شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي »

وانظر اليه كيف يتدبرا امره فنائاً يضع نفسه فوق المتنبي ويستعلي على التكسب
 بمدحه ولو من صاحب التاج العثماني ، أمير امير الشاعر ، ان صبح التعبير ، اذ يقول في
 تهنئة السلطان العثماني وقد نمجا من محاولة اغتيال :

« ومن كان مثلي احمد الوقت لم تجز عليه ولو من مثلك الصدقات
 ولي دُررُ الاخلاق في المدح والهوى وللمتنبي درة وحصاة

(١) العالي معطوف على « اجلى الكرام » وهذا منادى ، ولا ادري كيف اجاز لنفسه
 الشاعر ان يعطف المقترن بال على المنادى « يا » في حين اجتماع حرف النداء بال التعريف
 لا يجوز الا في اسم الجلالة فنقول : « يا الله » .

نجت أمة لما نجوت ودوركت بلاد وطالت للسري حياة». ولا اعتقد هذا الاستعلاء غير شهادة ، يريدها الشاعر المترف المتخم بنعم قصر عابدين ، ناطقة صريحة بأنه حيز رزقه ومبلغ نعمته فيما كان البلاط المصري يغمره به من عطايا ويجريه عليه من مخصصات وينجحه من جوائز وأوسمة وألقاب ، ولا غرابة « فكرمة ابن هاني » ناطقة بسخاء البلاط الحديوي على بانيتها .

ولم نشأ أن نعرض عن الإمامة بشوقي مادحاً اسلامياً تركياً مشرقياً اعراضنا عن الإمامة بابي الطيب مادحاً لكافور وفاتك وغيرهما ، لان الصلات الموجودة بين بلاط مصر والاسلام والترك والشرق مفقودة بين بلاط حلب وبلاد ممدوحى المتنبي الآخرين ، فصاحب عابدين كان لا يؤذيه ، بل كان يرضيه ، ان يشترك شاعره ، باسم مصر ، في افراح الشرق واحزانه ، وهذا ما اشار اليه شوقي اذ قال :

« كان شعري الغناء في فرح الشر ق وكان البكاء في احزانه »

بينما لم يكن يرضى سيد بني حمدان ان يشترك شاعره معه ممدوحاً آخر ، والى هذا أشار المتنبي اذ قال :

« لئن تركن ضميراً عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم ندم^(١) »
وصفوة القول ان شوقي تناول من موائد البلاط المصري حتى التخمة ، فاسمعه يطلب السعادة في غير نعاء القصور اذ يقول :

« فان السعادة غير الظهور وغير الثراء وغير الترف »

ولكنها في نواحي الضمير اذا هو باللوم لم يكتنف

وما اخال شوقي الا واحداً من الذين لم يحملوا ضميرهم ما يتقبل .

(١) نون الاناث راجعة الى الركائب . وضمير جبل في بلاد الشام يقوم عن بين المسافرين الى مصر .

جادة المريع الصادق واعدة

وانه تعددت الطرق

لقد اثبتت الدراسة الادبية الصحيحة ان الشعر والشاعر والشاعرية اقانيم ثلاثة منفصلة متصلة في آن واحد ؛ وربما جاز لنا ، عن طريق المثل الحسي ان نشبهها بالشوب والحياط ومقدرة الحياط الموهوبة طبيعياً .

والادب المدرس ، بشعره ونثره ، كالمرايا المصقولة على انواعها ؛ منها ما يريك وجهك بشكله الطبيعي وقياسه الحقيقي ، ومنها ما يريكه مزيفاً بعض الزيف ، اما في انحراف الى جهة التصغير واما الى جهة التكبير . ومن الادباء من يعرض ، نفسه او ما يتناوله في النظم عادياً في مرآته الادبية ؛ ومنهم من يقوي ماضعف ويستر ما شاء ويحسم ما حسن ومنهم ما يترجح بين هذا وذاك ؛ وقد يصح لنا ان نجمع الادباء في فئات كبيرة ثلاث وهي :

١ - ادباء السليقة المرسلّة كطرفة بن العبد

٢ - ادباء العقل والاجتهاد كالحرث بن حازة اليشكري

٣ - ادباء الموهبة والاحتراف ^(١) كالبيهقي

ولم نعن بتقديم ادباء نماذج في النثر لانحصار بحثنا في الكلام على جادة من جواد الشعر وهي شعر المديح .

(١) الاحتراف نعني به التهج الاداعي الجامع بين صحة البيان والمثل الاعلى المنبثق من روح العصر .

وربما لاحظت لنا في بعض مقاطع الادباء ، ولا سيما الشعراء منهم ، هذه الفئات
الثلاث مجتمعة في واحد كما يبدو لنا في بعض شعر بشار بن برد واليك الابيات الثلاثة
غزباً من هذا الخليط :

« اذا كنت في كل الامور معاتباً صديقك لم تلق الذي لاتعاتبه
فعلش واحداً اوصل اخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه
اذا انت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت واي الناس تصفو مشاربه
ففي البيت الاول يجتهد بشار في ان يعقل ، فيقفز طبعه من نطاق العقل في صدر
البيت الثاني ويسمعه قوله : « فعلش واحداً . . » وهذه حاله في معيشته ، ويقف
الاجتهاد بين طبعه وعقله فيتم البيت بقوله : « اوصل اخاك فانه مقارف ذنب مرة
ومجانبه (اخرى) » ؛ حتى اذا ما بلغ البيت الثالث طلع علينا شاعر الموهبة والاحتراف
بقوله :

« اذا انت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت واي الناس تصفو مشاربه »
وتجنبنا للتطويل نعتمد على التقسيم فنضع شعراء المدح الصادق عامة ، وشعراء
البلاطات خاصة ، في جادة فئة الموهبة والاحتراف ، رغم تعدد شعابهم احياناً مقتنعين
بان الموهبة العالية شرط مقرر الوجود لتستند اليه شخصية الشاعر فيقع عليه انتخاب
العظماء ؛ والاحتراف ضرورة ثانية مفروضة الخلق تنسج على نول فنهم المدائح المرصعة
بدر البيان .

وان نحن امعنا الفكر في نتاج شعراء هذه الفئة رأينا ان اثبتته عند الدراسة
وافضله وقعا في نفس الممدوح الكبير الجدير ما توازنت فيه ، بعد صدق الاختصاص ،
الموهبة مع الاحتراف بقدر ما ؛ وان بدا الرجحان ، فليكن للفن على الموهبة تجانساً
والمظاهر الملوكية ومجالي العصر ؛ وعملاً بهذه الدراسة التصنيفية ننظر الى اصحابنا
المتنبئ وشوقي والناطقة والاخلط فنقول :

ظننت الموهبة في شعر شوقي على الفن فاستعاض عنه بفخامة البيت وشروء القافية

دائماً واطلاق النفس الطويل أحياناً ، بينا الموهبة والفن عند الاخطل والمتنبني جناحاً طائر متوازناً القدرة على التحليق في سماء الشعر الملوكي الممثل بعضاً من وجوه دولة الممدوح . اما النابغة فموهبة تميل الى الرجاحة على فنه لا سيما ان صحت رواية وصفه من « المتجردة » ما لا يؤتى على وصفه ، ولكن مكانة حكومته الشعرية وجزالة الفاظه وسهولة بيته ،^(١) نسبة الى زمانه ، تدفعنا كلها الى التحفظ بالجزم في ترجيح الموهبة .

وان النابغة والاخطل لم يفسح لهما القصر في مدهما الشعري بل ضيق عليها بعض التضييق بينا خلق للمتنبني القصر آفاقاً شعرية جديدة^(٢) ، ولكن الثلاثة احسنوا تمثيل عصورهم ، بالتقدير الممكن مع مراعاة الزلفى ، وخلق الاولان مثلها العليا بنات لزمانهما في حين قصر شوقي بعض التقصير ، في هذا الطريق ، لتقيده بنماذج ادب سابق وجعله مثله الاعلى سابقاً اعصره .

وقال هؤلاء الاربعة شعراً في غير اختصاصهم بمدوحهم فكانوا ، لادمانهم حياة القصور ، لا يحسنون التفكّل منها فتستمر غالبية على شعرهم ، فاشهر ما للنابغة اعتذارياته ، وأعلى ما للاخطل الرائية التي سمي بها « شاعر بني امية » واوسع ما للمتنبني من الروائع الشعرية فضليات مدائحه في سيف الدولة ، وابقى ما ثقّف شوقي من الشعر « بكائه » في مصائب « الشرق » على حد اعترافه اذ قال :

« كان شعري الغناء في فرح الشر
ق وكان البكاء في احزانه » .

اما الذين لم يختصوا بمدوحين ، من سائر شعراء العرب ، ففرائدهم في غير المدح ، كانت غالباً ، اوثق اتصالاً بحياة الشعر من باقي قصيدهم .

(١) ربما كانت سهولة البيت في شعر النابغة ، وهو مضري المتحدر والمضربون موصوفون بشدة الاسر ، ضرباً من الفن لذبوع شعره في العرب .
(٢) وفي هذه الافاق يقول الدكتور طه : « ما نفقده من حرية المتنبني في فنه تعوضه علينا عبودية المتنبني لسيف الدولة ان صح التعبير »

واتفق الاربعة في ان كانوا المجلين في عصورهم ، ان لم يكن في سائر الشعر ففي المدح ، لانه شغلهم عن العناية بغيره ، وان لم يتفقوا في كل مظاهر الشخصية فقد اتفقوا في واحد منها وهو المزاج المستعلي الطموح ، وكانوا جميعاً ضخام المعاني غزيريهما ، انيقي الزواء ، رائعي البيت ، شرودي القافية ، تعوزهم حرية الموضوع وجراءة الاستقلال الشخصي في المدى الشعري الخالص .

وتنطح الثلاثة ، النابغة والاخلطل والمتنبى خصوصهم وحسادهم مستجوثين بشخصياتهم وامرائهم كل الجراءة على الكائدين والواشين ، بيدنا جن شوقي بعض الجبن ، ان لم نقل مع بعض النقدة ، راغ لهم ، ومع البعض الآخر ، ترفع عليهم او صفح لهم ، ولعل اصحاب هذا القول الاخير استندوا الى قول شوقي في هذا الصدد :

« واغفر لحاسد نعمة بالامس نالك او وقع
ما في الحياة لان تعاتب او تحاسب متسع »

وكانوا جميعاً كالطائر الغريد الداجن الذي تفتح له باب القفص فيخرج منه ثم يعود اليه مختاراً منجذباً الى ما فيه من خادع المتزلة ونعمة العيش . وكان قفص كل منهم ينفسح بقياس شخصية الممدوح ادباً وسلطاناً ويرتفع الى مستوى فن الشاعر في اعتياده على :

العقل والجمال والابراع

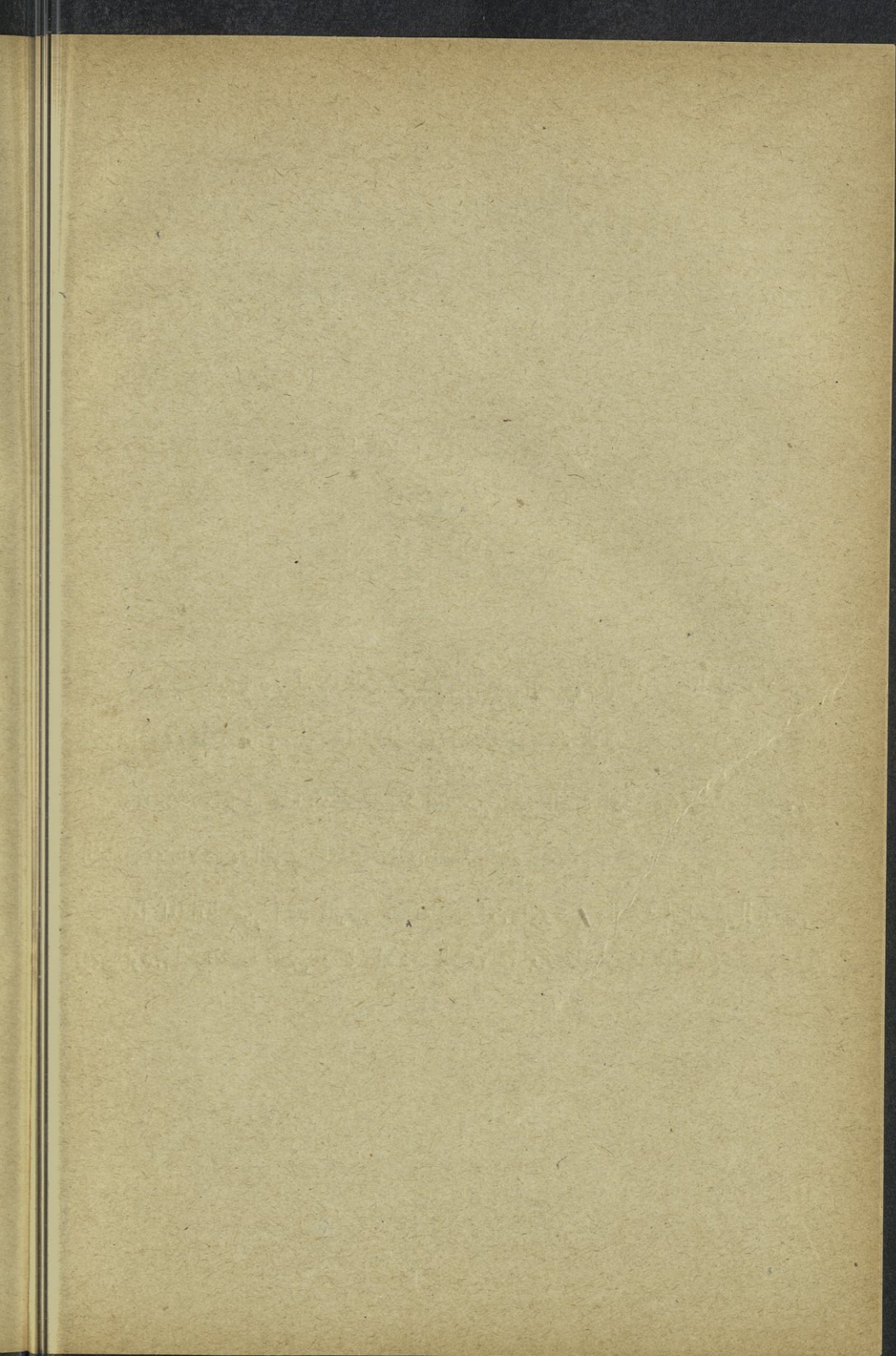
وهذه صفحات يسيرة من سلسلة أبحاث مقتضية أهميتها :

الأمالي الأدبية

عنينا بكتابتها توفيراً لاوقات مريدي الادب العربي من أقرب مناهله وأوجز خلاصاته ؛ وقد بدأنا ، منذ حين نوالي نشر بعضها في مجلة الاديب .

وما نشبته منها في هذا الكتاب لا يحاو من بعض الصلة بأدته ، في بعض وجوه التفاعل بين الادب والقوى المتحركة في مصائر الامم .

اما املياتنا عن احمد فارس الشدياق وابن الرومي والشيخ ابراهيم اليازجي فهي نموذج لتعريفنا بعض اركان الادب العربي في ابرز وأيسر ما يستطيع .



الحيرة اقدم بيضة

فمن بين الثقافين العربية والفارسية

لا بد للمتوغل في استقراء المروي عن العرب والفرس من ان يقيم لهم على اخبار وصلات كثيرة بين تاريخ واساطير . وإما نحن اهملنا الاسطوري منها كاسطوري منها الضحَّاك^(١) وافريدون^(٢) ، واسطورة زال بن سام الذي تزوج بنت مهراب والدة

(١) الضحَّاك هو مرداس احد امراء البسن استفواه الشيطان على قتل ابيه ففعل ، وظهر له في شكل طاه خبير دخل في خدمته فاطعمه اللحم لاول مرة فاستطاب الوان طبعه فادناه منه . واستأذنه مرة في تقيل كتفيه فاذن له فقبله واختفى في الارض وكان ان نبت في موضع القبله شبه حيتين عهد بمالحتها الى الشيطان نفسه العائد اليه في صورة طبيب ماهر فوصف الدواء طلاء من ادمغة الناس ، فعاش الضحَّاك سفاكا يتداوى بادمغة الضحايا .

(٢) افريدون قاهر الضحَّاك وهو عند الآريين كنوخ عند الساميين ، وهو جامع ارحام العرب والفرس لاول مرة بتزويجه ابناؤه الثلاثة باميرات عينيات ، وهذا ابو تمام يقول مادحا الوائق ومشير الى ما ذكر :

ما نال ما قد نال فزعون ولا	هامان في الدنيا ولا قارون
بل كان كالضحَّاك	في العالمين وانت افريدون

رستم ، كبير ابطال الفرس ، وغيرها مما جاء في الشاهنامة ، وحدثها يعود الى القرن الخامس قبل الميلاد ، اتضح لنا ان الحيرة اقدم الاوساط المعروفة التي نشأت فيها صلات العرب بالفرس على نور التاريخ وفي ظل السياسة .

والحيرة مدينة قامت على ضفة الفرات الغربية في الجنوب الشرقي من مشهد علي ، وعلى بعد ثلاثة اميال من موضع الكوفة شمالا . ابتناها اللخميون واخذوا اسمها - بوجه الترجيح - من السريانية ومعناه الحصن حوله الحندق ، ولذا عرفت - « حيرة النعمان » مرة و « حيرة المنذر » اخرى .

وذاعت شهرتها في طيب المناخ ، وخصب التربة ، وصفاء الجو ، الى ان قيل : « يوم وليلة في الحيرة خير من دواء سنة . »

وكانت هذه العاصمة منذ نشأتها بيئة امترجت فيها عناصر من امم متفرقة سادهم العرب . ولتألم السيادة العربية عليها نبذة تاريخية نستند اليها في سياق الكلام وهي : لما غنت بلاد فارس للاسكندر الكبير بعد هزيمة دارا سنة ٣٣٣ ق.م . ولى عليها امراء عرفوا بملوك الطوائف . ولم يطل العهد بهؤلاء الملوك حتى شبت بينهم نار الفتن فرأى بعض العرب من تنوخ في شبوب تلك الفتن فرصة سانحة لاسترداد بعض ما غصبه الفرس من بلادهم فهابوا الى ما ارادوا برئاسة مالك بن فهم القضاعي القحطاني فقتل بهم في جانب الانبار وابتنى له قصرأ هناك فكان ذلك البناء نواة لعارة الحيرة . وعظمت تنوخ في عرب الشمال وعرفت بعرب الضاحية .

واعظم ملوك تنوخ رأياً وسلطاناً جذية الوضح او الابرش ، مدخل العراق كلها في دولته وجامع العرب برأيه واول من ضرب في الحرب بالمجانيق من ملوك العرب ، نذكر له ، من فضل حكومته ، وقوفه ٢٢٦ م . في وجه اردشير بن بابك موحد بلاد ملوك الطوائف ومؤسس الدولة الساسانية وباعث مجد الفرس .

وانتفع الساسانيون بصدقة تنوخ في حربهم الروم وعرب الشام من قضاة

والازد . ودامت هذه الصداقة طويلا غير انها لم تكن لتخلو من بعض فترات خصومة .

اما دور الحيرة المعول عليه في درس العلاقات الثقافية بين الفرس والعرب فينتدي . بانتقال الحكم التنوخي بعد بقاءه ما ينيف على قرن وربع القرن الى عمرو بن «رقاش» اخت جذيمة الوضاح الذي نسلته من عدي اللخمي ، وحجب الى خاله فتبناه فورث الملك واسس السلالة اللخمية وقضى على سلطة نائلة العمليقة الملقبة بالزباء ، اميرة شهل الجزيرة - ما بين النهرين - وبسط جناحي الحيرة على معظم عرب الشمال .

وما زالت دولة بني لحم تنمو والحيرة يعظم شأنها السياسي الى ان كانت حكومة المنذر الاول بن النعمان الاول - باني الحورنق والسدير - فعظم شأن الحيرة الادبي ايضا في ذلك العهد وكان من دلائل عظمتها ادباً وسلطاناً العهدة الى المنذر الاول بتربية بهرام جور بن يزدرج تربية عربية واخذ الشعر عن العرب والتجاء هذا الامير الفارسي الى مربيه في امر استرداد ملكه ثم عوده اليه واستنصاره به في دفع غارات الروم ، فاشتد المنذر ووقع الرعب في قلوب الروم ولا سيما حين اشرف فاتحاً على عاصمتهم القسطنطينية .

وبعد ان عرضنا فيما قدمناه من تاريخ الحيرة الدولي ان ملك الفرس تأدب بالعربية لغة واكتسب من العروبة اخلاقاً ورياضة خيال نرى ان نقطف من مقدمة بن خلدون قوله :

« ان لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان . . فالتكلم بلسان العرب والبلغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على اساليب العرب والنحاء مخاطبتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده فاذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه امر التركيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير منجى للبلاغة التي للعرب وان سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحى مجّه ونبا عنه ممعه بادنى فكر بل وبغير فكر الا بما استفاده من

حصول هذه الملكة ، فان الملكات اذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعية وجبة لذلك المحل ، ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات ان الصواب للعرب في لغتهم اعراباً وبلاغة امر طبيعي ويقول كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وانما هي ملكة لسانية في نظم الكلام فكانت ورسخت فظهرت في بادى الرأي انها جبة وطبع . »

بهذا القول وبما هو بمعناه لبعض مفكري سائر اللغات ذات الحزانات الثقافية نستعين لترفع ما نجده من صعوبة في فهم نسبة امثال الزمخشري وسيبويه والفارسي والصاحب بن عباد وابن العميد الفارسية وبلاغتهم العربية ، اذ ليس هؤلاء واندادهم من قادة الفكر والادب غير احفاد لاوائك الاسلاف الذين تأثروا بالتربية والنشأة فكانت لهم ملكة اللسان العربي الصميم .

ولقد كان الطابع العربي قوي الاثر في الفارسية لحدوث التماس بين المذاذة والاكسرة ، والعربية ما تزال سليمة صرفة . فكانت عجمة الدم لا تؤثر في عربي المنشأ ، غير الحاصل على لغة آباءه واجداده ، تأثيراً يؤخر في سلامة بيانه وصحة ذوقه في مباراة ابناء الضاد في لسانهم .

ومن اشهر من عزت الحيرة اديباً بملكهم عمرو بن هند صاحب الاخبار الكثيرة مع الشعراء والادباء نذكر منهم ثلاثة : طرفة بن العبد وخاله المتلمس وعمراً بن كلثوم . اما النعمان بن المنذر المكنى بابي « قابوس » ^(١) فهو اشهرهم ورافع لواء العربية عالياً ومدوح نخبة من شعراء الجاهلية المقدمين كالنابغة الذبياني ، والمنخل الشكري وحسان بن ثابت ، وحاتم الطائي ، وعدي بن زيد ، ولهذا الاخير « عدي » صفة بارزة في تكوين صلات اديبية بين بلاطي الحيرة وفارس ، فأبوه تعلم الفارسية واتقنها وادار البريد في عهد كسرى برويز ، واتصل عدي ايضاً بكسرى فكان كاتبه وترجمانه

(١) بابي دير اللج في الحيرة ومدينة النعمانية في جنوب بغداد اليوم .

بالعربية ، وشغل وظيفته ابنه زيد من بعده .

وقد يجي . عدي والاعشى في القافلة الاولى من ادباء العرب المتأثرين بالفارسية والمدخلين على الشعر العربي بعض الدخيل الاعجمي ، كما ان بعض العرب كآل زيد العبادي وقيس بن مسعود وعبدالله بن جدعان واياس بن قبيصة الطائي - عامل كسرى على عين التمر وما والاها الى الحيرة - ادخلوا الفاظاً عربية على لغة الاعاجم . وان نحن اضفنا الى التأثيرين الفردي والسياسي التأثيرين الوفدي والتجاري علمنا الى اي حد اتسع تبادل الصلات الادبية بين الامتين ، وادركنا مبلغ بروز الحيرة في هذا التماس المتبادل الطابع .

واسهر وفود العرب في الجاهلية ، الى بلاد فارس الوفد الذي وجهه ابو قابوس مؤلفاً من اكثم بن صيفي التميمي وعمر بن الشريد السلمي والحارث بن ظالم وقيس بن مسعود البكريين ، وخالد بن جعفر وعامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين وعمر بن معديكرب الزبيدي والحارث بن ظالم المري ، وكلهم خطباء وشعراء محسوبون منسوبون ، للدفاع عن كرامة العرب وامجادهم ففعلوا وظهروا موضع اعجاب كسرى وبطانته ووجوه دولته فاكرمهم مقيمين وودعهم محترمين .

وفي اخبار فتنة مزدك وبعض ايام العرب كيوم ذي قار^(١) ما يقيم الدليل الواضح على حاجة الامتين الى اجادة اللغتين اذ ان العرب لم يستمروا مستضعفين الى جانب الفرس ، وهذا ابو تمام يذكر في مدحه بن مزيد الشيباني انتصار شيان على العجم مفاخراً بقوله :

لهم يوم ذي قار مضى وهو مفرد وحيد من الاشباه ليس له صحب
به علمت ههب الاعاجم انه به اعربت عن ذات انفسها العرب

(١) ماء لبكر بن وائل بين الكوفة وواسط .

هو المشهد الفرد الذي ما نجا به لكسرى بن كسرى لاستام ولا صلب
لقد تبادلت الامتان ايضاً الروايات والقصص من واقعية وموضوعية واسطورية ،
واشهر من حدث من العرب باخبار الفرس فاكثر وتطرف النضر بن الحارث في الاسلام
اذ كان يزعم انه في تحديثه باخبار رسم واسفنديار وملوك العجم امتع كلاماً من النبي
الكريم محمد في تحديثه باخبار عاد وثموده وعن الحيرة سمع معظم ما روي .
وكان لاخلط الامم التي تألفت منها عرب الشمال عامة وعرب الحيرة خاصة ^(١)
يدفي خلق الصلات بينهم وبين جيرانهم من منافسين واحلاف ، وفقاً للظروف ، وكان
الفرس في مقدمة من كان لهم شأن مع عرب الحيرة في خصومة وولاء .
ولقد اجمع المؤرخون على ان الحيريين ، ولا سيما العباد منهم ، اساتذة العرب قديماً
ومستنبطو الخط المنسوب الى الحيرة والمعروف بالجزم ايضاً والجاهدون في تأسيس
المعارف العربية فهم نواة علماء العرب على حد المثل الجاهلي المأثور : « اول الشجرة النواة »

(١) تألف عرب الحيرة من ثلاث طبقات وهي :

- ٢ - تنوخيون ومساكنهم بيوت الشعر والوبر بين الحيرة والانبار .
- ٣ - العباد سكان منازل الحيرة واصحاب المركبتين السياسية والادبية فيها .
- ٤ - الاحلاف وهم نازلون في الحيرة من غير تنوخ والعباد .

الشموية وتأثيرها في الادب العباسي

لم تصل الدولة العربية من عمرها السياسي الى بيعة علي في الحجاز ونهوض معاوية في الشام لمناوأة تلك البيعة وانتزاع الخلافة من ابن ابي طالب، حتى بدا انقسام العرب هذه المرة، أوسع خرقاً وأعسر رتقاً من الانقسام المالي اليثري في مطل الرسالة النبوية على الدنيا وظهور الدولة العربية في ظل تلك الرسالة الرشيدة، وذلك لان عوامل الفتن وتباين النزعات اصبحت أبعد غوراً في النفوس وأعدى في ايقاظ المطامع والاحقاد وهكذا كانت محاولات العباسيين ابناء عم الرسول، والطالبيين، ابناء بنته، في استرداد الخلافة من آل ابي سفيان تفسح مجالاً لدخول غير العرب الخالصين، ممن ادخلوا الحكم العربي عنوة او صلحاً، في شؤون سدة الخلافة العربية الاموية متظاهرين بالعبادة على نصرة اصحاب الحق ومقاومة اهل الباطل، وهم، في سرهم، لا يضمرون غالباً غير الاقتصاص من العرب الفاتحين. على ان هذه المرحلة العسيرة من حياة الدولة العربية لم تكن ظاهرة جديدة او فعالية اولى في الكيان الدولي، على صفحة هذه المعصورة، فكثيراً ما تغزو أمةً أخرى بالسيف وتكون الغازية بالسيف مهزومة أمام القوى الفكرية الطاغية عليها من الحواضر المفتوحة، ولنا بفتح الرومان أثينا خير شاهد على صحة ما نقول، اذ كانت رومة سيدة الموقف بالجيش المظفر، وأثبتنا سيدهته بالفكر النير.

هذه كلمة لا بدّ منها للدخول الى قلب الموضوع الذي نحن في صدر الكلام عليه مستندين الى ان عوامل السياسة والحكم يغلب فيها ان تطغى على العوامل الاخرى في الظاهر ، ولكن الفكر البشري ، آية الاعجاز في الخليقة ، كان وما يزال القوة الرئيسية في تدبير هذه الحياة وتنظيمها والسير بها في مختلف مناحي العمران والروقي . على ضوء هذه الحقيقة الثابتة نتبين ان الدولة العربية اصبحت ، بعد فتحها بلاد الفرس ، بما اصبحت به الدولة الرومانية بعد فتحها بلاد الاغريق ، فقد كان الفرس ، زمن الفتح العربي ، اصحاب دولة من اخصب دول الاعصر القديمة فكراً واغزها سلطاناً واكثرها عمراناً وأذهبها تقاديا في دروب المذات ، ولم يتبينوا مواضع الضعف ، عند تنبه العصبية العربية والاحزاب الخلافية حتى مدوا يد نفوذهم الى جهاز الدولة العربية ، بعد ان سربوا اليها اباحيثهم ، يعملون على زعزعة اركان وحدتها وقوتها ، وهذا « النخر » في دوحه الدولة العربية لم ينحصر بالفرس ، ممن فيأ عليهم السلطان العربي ، بل تعداه الى غيرهم ايضاً ولكن « مناخر » الفرس كانت الاقوى والبادئة .

اجل ، ان هذه النعمة السياسية الناشئة في ايام عزة الامويين والمكبوتة في عهد الاشداء الجازمين من الخلفاء العباسيين امثال ابي جعفر قاتل ابي مسلم الحراساني ، وهرون الرشيد كمبيد آل برمك ، اخذت تشتد وتسهر في عهد من تلا الامين ، الذي يعتبره جل المؤرخين خاتمة الخلفاء الضابطين دواتهم بشكل يوحي بهية الحكم .

وهذه النعمة السياسية الحاقدة المتربضة لهدم كيان الدولة العربية عندما تهيج دعائها في غفلة القائمين على رعاية شؤونها ، هي نبي عليه تعريف الشعوبية في التاريخ العربي .

ولتترك الآن ما عيت مباشرة الى الحقل السياسي مقتصرين في تحديد الشعوبية ودرس اثرها كما عرفت في مفهوم تاريخ الادب . فالشعوبية على هذا القياس ، طغيان النزعات الدخيلة على جسم الامة العربية وتفكيكها ، في واسع دولتها ، على النزعة العربية الصرفة وتفضيل كل ما هو غير عربي على كل ما هو عربي ما خلا اللغة .

واشهر هذه الترتعات واولاها الترتعة الفارسية .

قد لا يكون في تاريخ آداب لغات الارض كلها تاريخ لغة تظهر فيه مستفيدة من فكر الامم الداخلة في ظل حكمها بالمقدر الذي تظهر فيه اللغة العربية ، فهي من هذه الناحية تتمتع بخاصة عجيبة اذ تبدو كالمصهر تذوب فيه آداب الامم الاخرى لتنصب في المسابك الثرية وتنظم في الاسلاك الشعرية او تكرون كخلايا النحل تجتمع فيها خصائص الازهار وعصاراتها الشهية او كمستقطرات العطر تنتزع الطيب من مكانه . ولئن كانت الشعوبية شؤماً على الدولة العربية سياسياً وفاساً قاطعة في اصول سلطانها ، فلقد كانت ، من حيث المظهر الفكري ، جداول مناسبة هنا وهناك تروي وتحصب وتحمو ولعل من الخير ان ندخل في ابانة هذا التأثير بعض الشواهد الناطقة ، معتمدين على عرض موجز لبعض اقطاب الادب العربي او بالاحرى اللسان العربي ، دفعاً لما تتناوله لفضلة ادب من المعاني الواسعة المتنوعة .

من هؤلاء الغرباء عن الاصل العربي المجاهرين بعدائهم الترتعات العربية بمجملتها ، تحت لواء الادب الجديد ، فخورين باصولهم الغريبة متبادين في اعلان شعوبيتهم بشار بن برد راس مخضرمي الدولتين ، الاموية والعباسية ، وموطي . الجدة في الشعر العربي ، بعد الوليد ، يقول :

الا ايهذا السائي جاهداً ليعرفني انا أنف الكرم
نمت في الكرام ، بني عامر ، فروعني واصلي قريش . العجم

وابو نواس ، يمثل عصره وحامل لواء الجديد في الشعر ، يعلن شعوبيته جريئة جارحة في قوله :

عاج الشقي على رسم يسائله وعجت اسأل عن خماره البلد
يبكي على طال الماضين من اسد لا در درك قل لي من بنو اسد ؟
ومن تميم ومن قيس ولفها ليس الا عاريب عند الله من احد
الى ان يقول :

لا جف دمع الذي يصبو الى حجر ولا صفا قلب من يهفو الى وتد
ويطيع بن اياس، اخو ابي نواس في رفع لواء الجديد يقول في جهر الشعوبية الخلية :
لافضل من بيد يحاربها القطا ومن جبلي طيء ووصفكما سلعا
تراقب عيني عاشقين كلاهما له مقلة في وجه صاحبه ترعى
الا ترى هذا الجديد الشعوي كم يفخر مجاهراً بغريب الاصل وجديد المنهج محقراً
الاصل العربي والمناهج العربية القديمة ؟ ان الامر ظاهر لا يحتاج الى كشف ولا الى
تدليل فالعربية ليست وجهاً جديداً ، بكل ما في الجدة من معنى ، ابتداء من دخول
الموالي الفرس وغيرهم البلاد العربية ، فبدلاً من اقتصاد دائرة الشعر العربي الجاهلي على
وصف الديار وذكرى الاحبة والمديح والهجاء والحكم المتفرقة وبعض المحاولات في
الغزل « التقليدي » والحزنة والوصف « العيني » المتقطع ، وعوضاً عن اكتفاء الشعرين
المخضرم والاموي بالتقديم مع بعض زيادة عليه من شعر الاختصاص بالسياسة ، كسعر
الاخطل التغلبي ، وشعر الاختصاص بالغزل ، على نوعيه العذري والاباحي ، كسعر
جميل بن معمر وعمر بن ابي ربيعة ، اخذ شعراء الدولة العباسية يعدلون في المعروف من
مناهج الادب القديم حتى يوشك ان ينتسخ ويفتحون من الجديد ابواباً لم تعرف من
ذي قبل كالمجونيات والزهريات والصرفيات والزهديات الى غير ذلك مما يطول الكلام
في عده .

واشهر ما يسترعي الانتباه عند دروس هذا الجديد اهتمام هؤلاء المولدين بما نسميه
في الدراسة : « الوحدة الموضوعية » . واثن كان بعض مؤرخي الآداب العربية
كالشيباني وابي عبيدة مثلاً ينعون على العربية فقدان متانتها وضعف احاطتها بشتات
اللفظ العربي كما في شعر الفرزدق ، مثلاً ، الذي يفضلونه على جرير من اجل انه حفظ
لغة العربية ثلث الفاظها من الضياع ، على زعمهم ، فاننا لا نرى اليوم هذا « الحفظ »
شيئاً يحسب بقدر الى جانب ما رجمه الادب الجديد من المرونة والاحاطة باساليب
الكلام .

ولا بد لنا منها كان محال الكلام ضيقاً في هذا البحث الصغير ، من ان ننوء بان من ذكرناهم ، من شعراء العصر العباسي الاول الشعوبين ، لم يكونوا سوى طليعة لشعراء كثيرين في الاعصر العباسية التالية ، بينهم غريب الجنس كابن الرومي ، صاحب اللوحات الوصفية الشعرية الخالدة ، وفيهم العرب الشاميون كالبيروني ، مفسح طريق الصناعة في الشعر العربي ومروض الحكمة فيه ، او كالبحتري ، مثقف الديباجة العربية وجاعلها مثلاً اعلى للشعراء . ومبلغ الفصحى ذروة من ذروات الوصف الرائع الذي قل ان مما الى اعلى منها شاعر آخر عند العرب وغيرهم من اصحاب الخزانة الشعرية ، وفي عدادهم ايضاً المتنبي والمعري المجليان في حلبة الشعر والفكر في آن واحد والمطلان من شاهر على دنيا التجاريب والفلسفة ننازل بها المفاهيم ونفهم المكابرين .

اما النثر العباسي الذي قيل فيه : « بدى بعبد الحميد وختم بابن العميد » وجلى في ميدانه عبد الله بن المقفع وابو عثمان المعروف بالجاحظ ، فلم يكن متمتعاً على الشعبية ، واسطع دليل على صحة ما نقول ان اثنين من هؤلاء الفرسان الاربعة عرييان بالبيان العالي واللسان البليغ وفيما خلا هذا فبعجتهم غالبية بادية لكل ذي فكر مبصر . فاسلام بن المقفع على يد عم السفاح لم ينج من الكاتب مجوسه محواً كاملاً وبيان ابن العميد لم يمنعه من ان يرأس ديوان البلاط السافاني ويستوزر عند ركن الدولة الحسن بن بويه .

هذه لمع قصدنا بها الاشارة الى ما افادته العربية قديماً من الشعبية لساناً وفكراً ، ولقد كانت العربية وما تزال مصابة بداء الشعبية ، يشتد عليها حيناً ويضعف آخر وفقاً لعوامل ومؤثرات لا عد لمصادرها ولا ضوابط لمهايتها ، هذا الداء المجهد الدولة والاجتماع كثيراً ما يحمل الصحة للسان والادب ولنا بما قدمنا عن العصور العباسية خير دليل .

احمد فارس الشدياق

موسوعة لغة وادب

اذا كان ادب النهضة الحديثة في لبنان موسوماً بالهلولة والسهولة ، ولا سيما الربع الثاني من القرن العشرين ، فذاك لاسباب كثيرة نعتقد ان اهمها اثنان : الاسترسال مع البداهة في عصر السرعة ، وهيبة الموروث اللغوي العظيم عن طائفة من الادباء اللبنانيين تخص منهم بالذكر اثنين الشيخ ابراهيم اليازجي واحمد فارس الشدياق . وامليننا هذه عن احمد فارس الشدياق .

الشدياق عشقوتي المولد حديثي ^(١) المنشأ رافقت طوعه على الحياة حوادث خاصة ربت في صدره التمرد واندفعت به في كفاح الاديب المتحرر من كل تقليد والمتغلب من قيود المذهبية ، فكان جوابة فكر ورحالة اسفار . فمن لبنان حيث انبلج فجره الى مصر بدعوة من المرسلين الاميركان ، وهناك حظي بتقدير محمد علي باشا الكبير فعهد اليه بتحرير « الوقائع المصرية » .

ومن مصر الى مالطة ، الى جامعة كامبريدج في انكلترا ، معلماً مصححاً ، ومنها

(١) نسبة الى قريتي عشقوت والحدث في لبنان

الى باريس حيث حملت اليه ربيع المصادفات باي تونس ، وكانت قصيدته في صاحب
تونس آنئذ ، معارضة طوت الاجيال لتعجري ، من غور الفكر الحديث في مسابك
العربية العصماء ، فرس رهان الى جانب لامية كعب بن زهير في مدحه الرسول العربي
الكريم .

وحمله تكريم الباي وتقديره على سفينة خاصة الى تونس فتولى تحرير الرائد
التونسي « وحسدت الاستانة تونس على الاديب الشاعر فارسلت الصدارة العظمى
العثمانية بامر السلطان عبد المجيد ، تطلبه من احمد باشا فجاء عاصمه بني عثمان ، وقد
سبقه اليها شعره في صاحب العرش ، وانشأ هناك جريدة « الجوائب » اول جريدة عربية
جارت الصحافة الغربية بقسط وافر من التوفيق وأطلعت على دنيا العرب صحيفة
تفننت فيها عبقرية احمد فارس ، في اساليب السياسة والعلم والادب والدعابة ، في
بيان لم تعرف العربية اعلى منه في عصورها جميعاً .

واجدر ما يستحق التنويه به في هذا المقام ان « الجوائب » ، وليدة ذلك القلم
البناني الفذ ، اعتبرها سياسة الغرب ، ردحاً من الزمن ، ترجمان الشؤون الشرقية .
وكان الشدياق في كل ما دبج يراعه ، يحيط بشعث اللسان العربي ، يقوم بيانه
فيها على اربعة اركان صامدة للتاريخ خالدة بخلود لغة الوحي والتزيل ، وهي : ذوق
المنقح اللغوي - حكمة الاجتماع - التهكم الفلسفي - الاعتداد بالنفس .

ومن ينكر على صاحب « الجاسوس على القاموس » والساق على الساق (وسر
الليال في القلب والابدال) احاطته الواسعة بفردات اللغة العربية وامتلاكه خواص
معانيها ، وفيها مدهشات الابحاث اللغوية الموقفة التي تترك المطالع مقتنعا بان المؤلف
سامي المهبة كامل العدة في هذا المجال ، واسطمع مؤهلاته كلفوي هي ذوق الواضع
ياخذ ، بين يديه ، قاموس الفيروزبادي ، ويرى ، مثلاً ، ان صاحب القاموس يورد
لفظه قاء بمعنى فاء فيرفض هذا الترداف ، حكماً ذوقياً ، وما يزال ينقب حتى يمسث
في قاموس لسان العرب ، على ما نصه : (تفتيات المرأة لزوجها تثنت عليه وتكسرت

تدللًا والقت نفسها عليه ، من الفيء وهي الرجوع) ، وقد ذكر ذلك في القاف ، قال
الازهري : وهو تصحيف والصواب تفيأت بالقاف . ومنه قول الشاعر .

« تفيأت ذات الدلال والحفر لعابس جاني الدلال مقشعر »

ولم يقتنع ذوق الشدياق الوضعي في العربية ، فاستمر منقبا ، ليجد فاء في غير
معنى رجع فوجدها ، كما يريد بمعنى تحرك الحياء في القول العربي القديم المأثور :
« مثل المؤمن كحافة الزرع تفيثها الريح مرة هنا ومرة هناك » . ثم طالع «الاساس»
في باب فاء فوجد فيه ما نصه : « وفيات المرأة شعرها حر كته خيلاء وتفيأت لزوجها
تكسرت له وقيل غنجا الغ » .

وليس المقصود من هذا الشاهد التدليل بالرجوع الى التحقيق اللغوي الذي يزيد
او نخذ من سعته في هذه الايام ، بل جل ما نرمي اليه هو ان نعرض المترجم عنه محققا
يجري متقدما في هذا المضمار فيجد من سعة الترادف اللغوي المنافي الذوق الوضعي
والناهي عن القابلية الاقتباسية . فهو لا يحقق ليخرج بعذر المتقدمين وانما تحقيقه
مشدبا مهذبا يترع الى ذلك بقسط عظيم من الغور والاحاطة والذوق . وهكذا يعتمد
الشدياق على ذوق الواضع علاوة على الذكاء والجلد والتنقيب ليجعلك تعقل عقله
وتسلم له بصحة ما يقول دون ان تحمل نفسك عبء البحث والدرس وفي عمله هذا
شهادة صادقة بانه جمع في صدره خزانة لغة فضمن للفصحى قيمتها من الضياع في عصر
خبا فيه نور العلم في هذه البلاد وتجهت مماء المعارف وقام منفردا بمهمة مجمع
علمي منظم .

اقتصرنا على اليسير في تعريف احمد فارس الشدياق فارسا مجليا في ميدان اللغة
لنعود اليه حكما اجتماعيا ينثر الحكم تارة وطورا ينظمها ، فهو اذا ما نثرها فعن قلم
بليغ وفي كلام مترابط التعبير جزل الالفاظ ، فانظر اليه يد قلمه الى تصحيح لغة ابن
المقفع في الحكايات التي وردت في « الليف في كل معنى طريف » مأخوذة عن كتاب
كليلة ودمنة فهو يقول بدلا من : « راس شجرة ، ذروة شجرة ، ومن ذاهبة في السماء ،

باسقة ، ومن نقل العش ، جمعه ، ومن لا يمكنها ذلك ، لا يتم لها ذلك ، والتصحيح
الذوقي الوضعي في اللغة دأبه في كل ما يؤلف وينقل .

وكتاب الليف مجموعة صغيرة الحجم كبيرة الفائدة فيها من قيمتي مؤلفها :
الكثير من متانة اللغة والنافع من حرية الفكر .

اما شعر الشدياق فمعظمه في المدح ، والمدح باب من ابواب النظم كان له مرتبة
عالية في سالف العصور العربية ، فلا ارى من المهم ان نتناولها للبحث في حين ان ديوانه
حافل بمايت الى ادب العصر بصلة مباشرة نتبين فيه على وضوح العقل والحس ادب
الشاعر ، كشعر الحكمة ، رفيق العصور كلها في الاداب العالمية . واكثر حكم
الشدياق الشعرية في ذم الدنيا التي آتته في عزيز عليه وفي نفسه ايضا ، وكان يرسلها
ابياتا متقطعة كلما عاودته غصة الالم او عن له ان يهجو الناس والزمان فتؤلف هذه
الناحية من شعره صورة لكفاح الاديب العاثر الحظ عثارا نفسانيا ان لم يكن مرتبيا
في الناس ، ولا مبالغة في القول ان هذين البيتين :

بنو الدنيا اتوا امرأ قبيحاً بان كلّفوا بامهم غراما

لذلك قابلتهم بالرزايا فكانت ما كانت حيوا لهم لزاما

من الحكمة الجامعة واقع الحياة ما يدعو الى الاعجاب ، فالعقاب ملازم غرام
الابن بامه ، غرام الانسان بامه الارض .

والاعجاب يرتفع الى الدهشة لقوله :

أرى غاية الذات قبل ابتد فمن اجل هذا لست انعم بالدنيا

فان هي الا للذي طاش فكره فلا يهرب العقبى ولا يرقب الثنيا

فالشدياق في هذين البيتين ساور غور الدنيا ولذاذاتها عارضا لنا ماهيتها عرضاً

موجزاً في نصف بيت من الشعر :

« ارى غاية اللذات قبل ابتدائها » .

ومن منا لا يشعر بان الفترة من الزمن التي تسبق عهد اللذة انعم للنفس من طعم اللذة نفسها وذلك لمرارة خوف الزوال التي تستولي على الناعم اثناء الاستمتاع .
ولا اريد ان انتقل من ناحية الحكمة الاجتماعية في ادب الشدياق قبل ان اقدم من شعره ما يصل بين حكمته واعتداده بنفسه قوله :

اذا ما رمت من دنياك امرأً فلا تك بالهنيء ولا المريء

فقد طبعت على اخلاق أنثى وما خلب النساء سوى الجريء

لا شك في ان هذا الشعر لا يتوفق اليه من طبع على القوة ومال الى الاقدام فاستعان ادبه فملك زمام الجرأة الادبية وكان رجلاً في دنيا الانوثة . لا اراني مضطراً الى الاكثار من البيئات لاضع اعتداد احمد فارس الشدياق بنفسه وتهكمه الفلسفي خصوصه موضع اللبس في ادبه وهو القائل :

ارى حولاً في عين دنياي انها تظل ترى لي ثانياً وانا فرد

فمن اجل ذا ضمنت بشطر معيشتي وما حاضر ندي وما نده يبدو

الم يكسر شاعرنا الرقم القياسي الذي وضعه المتنبي للاعتداء بالنفس وتحقير

الخصوم اذ قال :

« ان اكن معجباً فعجب عجيب ولم يجد فوق نفسه من مزيد ؟ »

الم يصل في نسبته الحول لعين دنياه برؤيتها له ثانياً ، وهو فرد ، الى غاية شعرية تجبب اليك هذا الفخر الواسع المدى ؟ . . . واغرب من هذا كله ان الشدياق يعتمد الفلسفة كثيراً حتى في هجائه ، او ليس في هذا البيت :

« كيف يدري شيئاً وما هو شيء . ان هذا في حيز المستحيل »
موضح هجاء فلسفي يجعل البيت الواحد افعال في نفس الحُصم من قصيدة ذم طويلة
قاسية .

ومن اراد زيادة ايضاح عن هذه الناحية في ادب الشدياق فليطالع قصيدته البائية
المنشورة في عدد الجواب رقم ٢٥ ومطلعها :

ويلي على هذي الجواب جاءت علي من النوايب
ويخلص منها بقوله :

لو كان هذا الخلق مثلي كان كلهم أقارب

وخلاصة القول ان احمد فارس الشدياق اسدى الى العربية فضلاً كبيراً ، قد
يكون في وقته وفي حين الحاجة اليه ، ابقى قدراً من عصر كامل من عصور العربية ،
هذه اللغة التي حلت هذا الجيل الجميل بعدئها الثمين فصره لها سبائك ونظمه قلائد
وطاع به على العالم ، وكان من امهر صاغته هذا الفارس الذي اراج سوقها ايام الكساد
وصقل جوهرها بعد ان علت الكدرة وتكاثف عليه الغبار .

ابن الرومي طائر

غرد خارج سر به

استمر ابن الرومي زمناً طويلاً بين الشعراء المغمورين الى ان ذر عنه غبار النسيان ونفض الغفاء النقد الادبي عندما اخذ يتلمس طريقه القويم في انصاف المؤهوبين الذين اغفل امرهم لبعض الاسباب . وما نزججه ان هذا الشاعر بقي مطموس القدر مبخوس الحق حتى مطل الدراسات الحديثة لسببين رئيسيين وهما :

١ - ضمة الاصل واختلاطه وتبذل الشخصية .

٢ - اغفال شعره او ضياعه .

وان نحن استندنا الى ما جمع من متبدد شعره ، وفيه ما يفي للنظر في قيمة ناسجه استطعنا القول ان هذا الوضع النسب الدخيل ؛ وما اكثر الاقلام الغدة الدخيلة في العهد السياسي ، هو على ما فيه من اسفاف في قدر الذات ، نادر التراث الشعري في لسان العرب . ولئن كان البعدي قد سبقه الى ابراز الفن الوصفي بروزاً رائعاً في موضوعه وديباجته واجزائه فلقد نحا ابن الرومي نحواً آخر في الوصف فكان شعره مستدقاً في صورته ومعناه مستقلاً في الغالب من زوايا الاهمال او من خصائص الموصوف

او من طغيان الحس . وانه في ساعات نظمه كالصائغ اللبق يجمع اجزاء ابياته فينتهي من صوغها ، وعليها ، فوق دقتها ، تماسك في النسيج وابداع في الابداع عبر عنها الشاعر نفسه اذ قال : « ما اخذت معنى الامته » .

وهذا الاخذ الذي عييت الموضوع هو الناحية التي كانت مهجورة تقريباً ، قبل ابن الرومي .

وفي يقيني ان هذا الموسوس لم يكن مغالياً في هذا القول الحكيم ، على كره من الحكمة التي لم تتيسر له الا في بعض وثبات البداهة ، فالدقة اذا طبع يطغى وليست عملاً يؤتى بالخليلة او بالمراس .

فهذا ابن الرومي يدس ملقط الفن الى زوايا الاهمال لينتزع من اوضاع الامكنة مادة لشعره ويرتفع بها الى سماء الصورة فهل رأيت احذب طلع في صورة قلبية كأنها لوحة زيتية قبل قول جريح الرومي :

قصرت اخادعه وغار قذاله فكانه متربص ان يصفعا
وكانما صفت قفاه مرة واحس ثانية لها فتجعبا

وهل رأيت قالي زلاية اصبح موضوعاً شعرياً يحيا فيه الى جانب زيتته الذي شبهه الشاعر بحجر الفلسفة او حجر الكيمياء ، الذي ادعى العرب وجوده زمناً طويلاً ، قبل ان نظم شاعرنا المعدم ابياته التالية ، وقد تحلب ريقه :

ومستقر على كرسيه تعب روحي الفداء له من مدنف تعب
ابصرته سحرا يقلي زلاية في رقة الشر والتجويرف كالقصب
يلقي العجين حيناً من انامله فيستحيل شبايكاً من الذهب
كانما زيتته المقلتي حين بدا كالكيمياء التي قالوا ولم تصب

لا تقل يا قارئ ، وما الذي يسقط من قيمة الشعر العربي لو اسقطت هذه الابيات وسقط معها ابن الرومي ، ان كان لا يسمو الا بمثل موضوعها الا تقل ذلك ، مرة اخرى ، فمثل هذه اللوحات الوضيعة الموضوع تنف فيفسما . او ان شئت اصداق

نادرة في متحف الفن الشعري .

وان كنت تحب الدقة في خصائص الموصوف ، ولا سيما في الحسناء ، فاسمعه يقول

في وحيد المغنية :

وغير مجسناها قال : ههنا	قلت : اصران بين وشديد
يسهل القول انها احسن	الاشياء طرا ، ويصعب التحديد
تجلى لناظرين اليها	فشقي مجسناها وسعيد
ظبية نسكن القلوب وترعاها ،	وقرية لها تغريد
تتغنى كأنها لا تغني ،	من سكون الاوصال وهي تحيد
لا تراها هناك تجحظ عين	لك ، منها ، ولا يدر ويريد
من هدؤ وليس فيه انقطاع	وسجو ، وما به تبديد
مد في شأو صوتها نفس	كاف كانفاس عاشقها مديد
وارق الدلال والضحج منه	وبراه الشجا فكاد يبيد ^(١)
فتراه يموت طورا ويحيا ،	مستلذ بسيطه والنشيد ^(٢)
الى ان يقول .	

أهي شيء ، لا تسأم العين منه
او اسمعه وقد رأى حسناء ، وفي يدها كأس خمرة ، يقول :

ومفهف كملت محاسنه	حتى تجاوز منية النفس
تصبو الكؤوس الى مراشفة	وتضج في يده من الخبس
ابصرته ، والكأس بين فم	منه وبين انامل خمس
فكانها ، وكان شاربها	قر يقبل عارض الشمس

(١) براه : اضعفه . الشجا : ما يتخل الصوت من القصة المستملحة في الفناء

(٢) البسيط : ما رق وامتد من الصوت . والنشيد : رفع الصوت والترنيم

ليس في هذه الابيات ، الدالية والسينية ، صور حية تثب الى العين عند قراتها
مستجلية خصائص الموصوف مستوفية محاسنه الى حد الغاية التي لا مرمى بعدها ؟ وان
في قوله :

اهي شيء لا تسأم العين منه ؟ ام لها كل ساعة تجديد ؟
جمعاً لماخذ الروعة الجمالية يرفعها الى ذرى الاعجاز ، في استفهامين تقريريين ، يستنفذ
في الاول منهما ملل العين بعوامل الدهشة ، وفي الثاني يستبطن ملاحه موصوفة ميزات
التجدد دفعا لافقة الحسن التي نضعف عوامل الاعجاب ، فبقاء الشعور بسلطان الجمال
على الخواس والجوانح مستمد من مثل لولبيه وهمية في مجالي البهجة والجازنية تبسط لك ،
وانت المقتون بما تحسه ، دنيا دائرة من المهابة الممتعة .

وما يعرضه من خصائص الموصوف مما او من حوله لا يعلو الى ارفع مما يبيديه
من مكان نفسه اما طغى حسه متأثراً بحب او كراهية ، ولما كانت آلامه مسيطرة
على هناءاته نستعين رثاه وهجاءه على اظهار هذا الطغيان الحسي .

للم تكن في شاعرية هذا التطوير النابي عن المجتمع منافذ عبقرية الاشراق لما
امكنك ان تقع له الا على المقاطع المظلمة الخزينة الملوحة بنار الحزن والالم والحمرمان
والقطيعة ؛ ولكن تلك المنافذ اطلت بشعره على مسارح الخلود حتى في سويقات حزنه
اليأس وعيشه البأس ، فاصغ اليه يرثي ابنه الاوسط ، مبتدئاً بنحطاب عينيه :

بكاؤكما يشفي ، وان كان لا يجدي فجدوا فقد اودى نظير كما عندي
الا قاتل لله المنايا ورميها من القوم حبات القلوب ، على عمد
توخى حمام الموت اوسط صبتي فله كيف اختار واسطة العقد
طواه الردى عني ، فاضحي مزاره بعيداً على قرب ، قريباً على بعد
ويستمر الشاعر في اخراج لوعته على ابنه الميت اخراجاً لا يتروك لك فيه مجالاً
لاستزادة على حزن الالاب الثاكل ولا لاستيضاح وقوع الخطب الجسم ، فالقصيدة في
مجموعها فجيعة عائلية في مجلى من الفن واطار من القافية المنسجمة والالم المرير ، فليست

هذه الابيات مختارا منها وانما هي جزء من صدرها .

واما ما عرفناه لهذا الشاعر من الهجاء فهو ، على ما فيه من قرس وعناء في استجاع الوصف المؤذي حتى يبرز المهجو موضوعاً للضحك والسخرية ، يثير اعجابك بفننه في حين انت تكره مؤداه .

ونحن ، اذ نعرض غرضاً من هذا الهجاء ، نود ان نجري في عرض مستندين الى جمال الادب المطلق ، ذلك الجمال الذي يعجبك منسوباً الى الفن بصرف النظر عن حسن المادة المتناولة او قبحها . هذا الفن الذي كان سبباً في خلق المذهب التقريبي في الشعر (Réalisme) فكان ديوان « زهور الشر » آية في الفن الشعري في ادب الغرب ، وكانت الرسوم الاستهزائية او الرمزية الشكلية (Caricature) فناً غازياً اساليب البيان عند الحاجة الى لباقة القرس دون النزول بالشعر الى درك الهجاء المنظوم .
واليك مقتضباً من هجاء تناول به شخصاً كان قد مدحه فرد اليه شعره وقال له امدح به غيري ، بعنوان ، المديح المردود :

رددت على مدحي بعد مطل وقد دنست ملبسه الجديداً
وقلت : « امدح به من شئت غيري » ومن ذا يقبل المدح الرديداً ؟
ولا سيما ، وقد اعقت فيه مخازيك اللواتي لن تبيدا
وما للحي في اكفان ميت ، لبوس ، بعدما امتلأت صديداً !
هذه اشارات الى ناحية الدقة الوصفية في شعر ابن الرومي ، تلك الناحية ، بل ذلك الوجه المغلف شعره كله بغنى الفن ، وخليق بمن كان مثله في ضيق عيش وذهاب صحة وفناء أسرة ان يكون مخلع البيت مفقود التوازن في غنائه ووصفه كما هي حاله الطبيعية ، ولكنها كيمياء الفن تجمع الاضداد فتؤلف منها المحاسن .

لذلك نرى ان هذا الشاعر كان طائراً خارج سربه ، وقع على ما لم يقع عليه احد منهم ، وعزلته طيرته فغنى من ابداعه ولم يعنه عصره او مجتمعه اعانة ذات بال في بناء شعره مثلما توفر لسواه حتي للاعشى البغيض ، بشار بن برد ، الذي شق له طريق «منبوذي المجتمع» .

واستناداً الى هذا الارث الفني النديرو استحق ابن الرومي مرتبة خاصة اعلاها بعض اساتذة الادب ، في دراساته الحديثة ، فوق شعراء العربية جميعاً في مختلف العصور .

مسائر الشهرة

في دنيا الادب الخالد

لا بد لرجل الفكر ، ليرك أثراً عظيماً في عصره ، من ان يحدث فيه احد تأثيرين او كليهما معاً :

تأثير القيم الانتاجية . وتأثير الشخصية قدراً وإيجاء . فاذا تناولنا قولهم : « على اي اساس نال الشيخ ابراهيم اليازجي ذلك المنصب الرفيع في الادب العربي الحديث مع مع انه لم يترك آثاراً كبيرة فيه ؟ » .

أجبنا بما يلي : اليازجي من اساتذة المنشئين النادرين في العربية وموئل البلاغة الحصيصة في الادب العربي الحديث ، نشأ في بيت مستقيم اللسان فصيح البيان ، وكأنه واحه من واحات الفصحى في صحراء عصره .

وكانت بواكير ادبه وهو ما يزال رطب العود ، ثماراً تلفت نظر العارفين الى قدر الاديبي الناشئ . وتوحي ، بثقة كبيرة ، بذلك القلم الطالع مبشراً ببلوغ الاوج الرفيع « في مجال الضياء » .

ولعل ميله المبكر الى الصحافة من جهة ، وعنايته بالابحاث العلمية من جهة اخرى

الهياء عن التوجه الى التصنيف الادبي الصرف ، فجرت عليه الصحافة ، وهي آنذاك
متبر بلاغة ، حرب الخصوم الذين تولوا الرد عليه ، فيما كان ينقد من سقطات اقلام
الكتاب ، مفنداً اياها في مختلف الجرائد التي اشترك في تحريرها او انشأها مستقلاً بها ،
فمن « النجاح » التي اخفقت في الظهور ، قبل تمام العام على صدورها ، الى « الطبيب » التي
اعنا الطب امرها فاحتجبت عند استكمال الحول ، وهي اداة ادب او سياسة في لبنان ،
الى « البيان » « فالضياء » في مصر ، ومصر ملتقى الاقلام اللبنانية ، في فترة الانبعاث
المباركة ، التي فيها اخذت تتحلجل اغلال العبودية على ضفاف النيل .

وعهد الشيخ الكبير هو عمر « الضياء » الخطير .

الا ان انضباطه الشخصي على الرغم من مزاجه العصي ، في معركة الاقلام التي
كثر فيها خصومه ، وكان ابرزهم نده الكف . احمد فارس الشدياق ، ضمن له احترام
المقربين الالباء ، ذلك الاحترام الذي ساندت فيه شخصية الشيخ الادبية مواهبه العلمية
واخلاقه الالئية واخلاصه الجري . للغة ، فكانت منزلته رفيعة في عصره ، على كره
من توزيع اوقاته ومجهوداته هنا وهناك ، ، بين معلم ومصصح وباحث عالم ومقوم اقلام
مربية وواضع مسميات كثيرة ومصطلحات عديدة للاستجدات العصرية . وقد
تكون هذه المهام التي اسرنا اليها ومؤلفه « نجمة الرائد » ومقاله الطويل « لغة الجرائد »
وكتابه « الامالي اللسانية » مضافة الى عمله الغزير ، ضمانة لعلو مقامه وذيوخ شهرته .
وقد تكون السنوات التسع ، التي قضاها في غزير وفي بيروت منقحاً عبارة التوراة ،
طبعة اليسوعيين ، والزمن الذي قضاها في اقام شرح ديوان ابي الطيب ، الذي كان قد
بدأه الاب فانجزه الابن ونسبه الى الوالد برأ بالايوة ، وشفع هذا الشرح المجهود الدقيق
بتنقيح الارجوزة في علم النحو ، لاييه ايضاً وباهدائه فترة من عمره العالي الى صديقه ،
جميل المدور ، فذهب له فيها كتابه ، تاريخ بابل واشور .

فلو طرحنا هذه السنين الموقوفة على التضحية البنيوية والوفاء للاصدقاء من عمره القصير لبلغت ربع عمره كاملاً او نصف المرحلة الانتاجية منه تقريباً . ومن كانت هذه حاله : انصرف الى علم الفلك ، فانتساب الى جمعيات علمية عالمية في باريس وانفرنس والسلفادور ، وتنقيب لتصحيح المعجمات اللغوية وسقطات الكتاب الكثيرة ، في مرحلة كان لسلامة البيان فيها المقام الاعلى في ميزات الاقلام ، فان له بعض العذر ان لم يكن كله ، على الا يكون انتاجه الادبي كثيراً .

وعلاوة على ما قدمنا فان في القليل الذي تقرأه للشيخ ابراهيم اليازجي ، من شعر او نثر ، ما يوقفك موقف المعجب بهذا الرجل ناثراً شاعراً ، ففي نثره يجري قلماً حصيفاً تحس في سطوره بلاغة توشك ان تكون اعجازاً فيستحق ان يعتبر امام منشئين ، وتنظر الى معانيه فتأسرك اليها قوة فكر وبراعة لقوي ولباقة اديب ممتاز .

واليك شيئاً من مقال في موضوع « القمر »

« هو ، بعد الشمس ، ابهى الاجرام السماوية على العموم ، ونكتة الفلك الارضي بل اغرب ما يرى الناظر في عالم النجوم اذا استقل فلكه يسبح فوق الوهاد والآكام ورايته يتراجع مع النجم وهو مجعد في وجهته الى الامام ، فتخطى الابراج ؛ وكأنه واقف لا يحس له الناظرون انتقالا ، وظهر بشكله من الهلال الى البدر حتي يعود هلالا فكان قيد الابصار تراه ابدأً جديداً ، على تقادم عهده ، وتبوهمه على قيد اميال عنها ، وهو الشاسع في بعده ، على انه ادنى العوالم من الارض مقيلا واعلقهن بها حبالا واقربين تمثيلاً ، فهو صورة الارض في السماء ورفيق طيتها الى حيث لا تدري في اجواز الفضاء ، وشريك بنحتها فنيا ارصد لها من احكام القضاء ، بل هو وليدها ، وان تقضي قبلها شبابه وشابت دونها اترابه ، وقد دفعته عنها منذ انفصاله فر الى حيث لا مطمع له في اياه ، ثم عز عليها الا يكون بجياها ، فأخذت عليه طريق النسيابه . فهو ابدأً

يدور من حولها مقطع النياط ويقطع معها اضعاف ما تقطعه من الاشواط . بل هو
 مثال الرونق والجمال وآية الابهة والجلال . اذا برز من الافق فانهزمت من وجهه
 جيوش الظلماء وانفرجت الكواكب لمره في عرض السماء ، فاقبل يتنقل بينها ، وهو
 يسير الهويناء عزة وخيلاء . فسبت اليه الابصار اعجاباً واكباراً وانصرفت اليه الوجوه
 ابتهاجاً واستبشاراً . وفي شعره يتراءى لك الشاعر المبدع ، وان اقل ، فهو لم
 يكن كثير البضاعة كتجار الاخشاب ، مثلاً فانه ، بلا ريب قيم المعدن في انتاجه
 معرض صائغ . فاسمعه يقول في عود الطرب .

«عود صفا الندمان قدماً بظله وما برحت تصفو نديه المجالسُ

تعشقه طير الاراكة اخضراً وحن عليه ريشه ، وهو يابس»

وله في ساعة دقاقة شي . من البدائع قال :

«ومحضية اعمارنا كلها انقضت لنا ساعة دقت لنا جرس الحزن

فيا بنت هذا الدهر قد سرت سيره فهل انت ، دون الناس ، منه على أمن ؟»

ولهذا الشاعر النائر مسند جليل الاثر بنته له جراته اذ ظهر في صف الطليعة من

اصحاب الفكر المتحرر ، يرسل في نفثات شعره حمماً من نيران الثائرين الناهضين .

وفي قصيدته الرائية ، التي تحسب من ابيكار الشعر الحر ، انتفاضات عربية تلوح

بذكريات الغز رتومي . الى طاول المجد ، قال مستهلاً بالدعوة الى نبذ التوكلية الشرقية :

«برأيك لُذا اذا عزَّ النصير ولا يعبث بهمتك الفتور

الى ان يقول :

كأني بالبلاد تنوح حزناً وقد اودى بعظمتها الثبور

يحن الارز في لبنان شجواً وتندب بعد ذاك الفر صور

وتدمر في دمار مستمر وما سكانها الا النصور

واضعت بعلبك وليس فيها سوى خرب لعظمتها تشير

فلودرت البلاد بما مراها لكانت تلهنها تمور»

ولا يحسن بنا ان نمر ، في مجال التنويه بقدر الشيخ الشاعر ، دون ان نشير الى
الى تناوله ، من بعض مشاغله العلمية ، موضوعات شعرية ، ويكفي ، اشارة الى
ذلك ، ان نستشهد له بقوله في الزهرة :

« تمشي الهوينا كامر النسيم ضحى ، في هودج من شعاع النور وقاد
يسارق الطرف عين الشمس منظرها فالشمس ، من دونها ، حلت برصاد
حتى اذا هجعت في ليلا ظفرت منها العيون بلح المبسم البادي
ولخلص الى مخاطبتها ، مشيراً الى انها كانت معبودة شعوب قديمة ، فيقول :
رأوك للحسن معبودا وما وهوا فالحسن معبود عشاق وزهاد
لعل للارض هذا الحظ عندكم وانما لو علمتم دار إفساد

وانه لمن الخير ان نثبت له بيتيه المشهورين النامين عن نفس نبيلة ؛ فهما يصلحان
لان يكونا رداً لكل من اعتدي عليه بهجاء مر وهما :

ليس الواقعة من شاني فان عرضت أعرضت عنها بوجه بالحياء ند
اني اضمن بعرضي ان يلم به غيري فهل اتولى خرقه بيدي

فبروز شخصية الشيخ ابراهيم في بره بالاب ووفائه وتضحيته للاصدقاء ، وتسنيمة منزلة
رقيب البيان العربي ومديح نماذجه النديرة ، وبراعته في حسن الاغراض عن وقائع
الخصوم ، واخلاصه للادب والعلم ، كل هذه جمعت له فدعمت له تأليفه القليلة ، فكان
تأثيره في النهضة الادبية كبيراً ومرتبته عالية ، فترسم الكتاب بعده اساليب انشائه
وانتفعوا باستحداثاته للمعاني الجديدة ، اذ وقعوا عليه مدرّباً للاقلام المتسرسة بالتأليف
والصحافة بعد ان كان معلماً للناشئة . وقد توج هذا اليازجي الكبير مواهبه السامية
بذوق مهذب امله لان يكون واضع حروف لفن الطباعة والنشر .

ومن توفرت فيه كل هذه المزايا ، فكانت ايامه شموغاً تحترق في خدمة الادب
والعلم والذوق ، بيدو خليقاً بان يتبوا امامة البيان في عصره وان تؤمن له الامامة
خلود ذكره ، على الرغم من قلة آثاره المطبوعة .

فهرس الكتاب

صفحة	
٩	مقدمة الشيخ عبدالله العلايلي
١٢	مدخل
١٤	توطئة
٢١	الشعر العربي في بلاطات الملوك
٢٤	نشأة الشعر في العرب وانفساح هائلته
٢٩	شخصية الشاعر
٣٢	من مجالي الغنائية في الشعر العربي
٣٧	صلة الشعر العربي بالملوك والامراء
٤٠	النابعة الذبياني في بلاط الحيرة ✓
٤٧	الاخطل التغلبي في بلاط بني امية . ✓
٥٥	المتنبي وامارة بني حمدان . ✓
٧١	شوقي في بلاط مصر ✓
٨٧	جادة المديح واحدة وان تعددت الطرق
٩١	من سلسلة الامالي الادبية
٩٣	الحيرة اقدم بيئة تماس بين الثقافتين العربية والفارسية
٩٩	الشعبوية وتأثيرها في الادب العباسي .
١٠٤	احمد فارس الشدياق
١١٠	ابن الرومي طائر غرد خارج سربه ✓
١١٦	مساند الشهرة في دنيا الادب الخالد

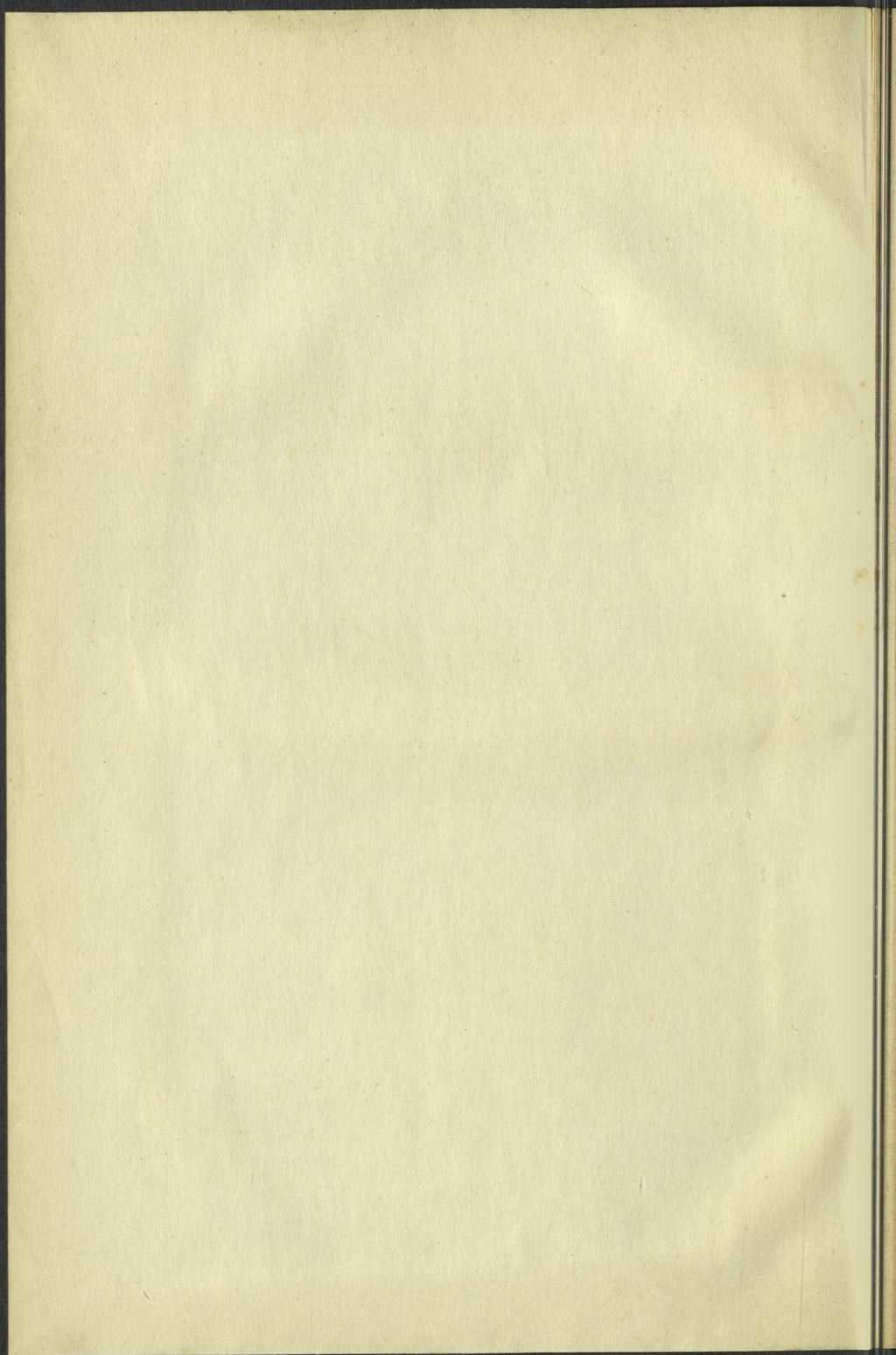
تم طبع هذا الكتاب

على

مطابع صادر - ريجاني

في الثالث من نيسان عام الف وتسعمائة وخمسين

١٩٥٠



3

808.1:N26sA:c.1

نصر، نسيم

الشعر العربي في بلاطات الملوّك

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031183

American University of Beirut



808.1

808.1

N26sA

General Library

808.1
N26sA
C.1